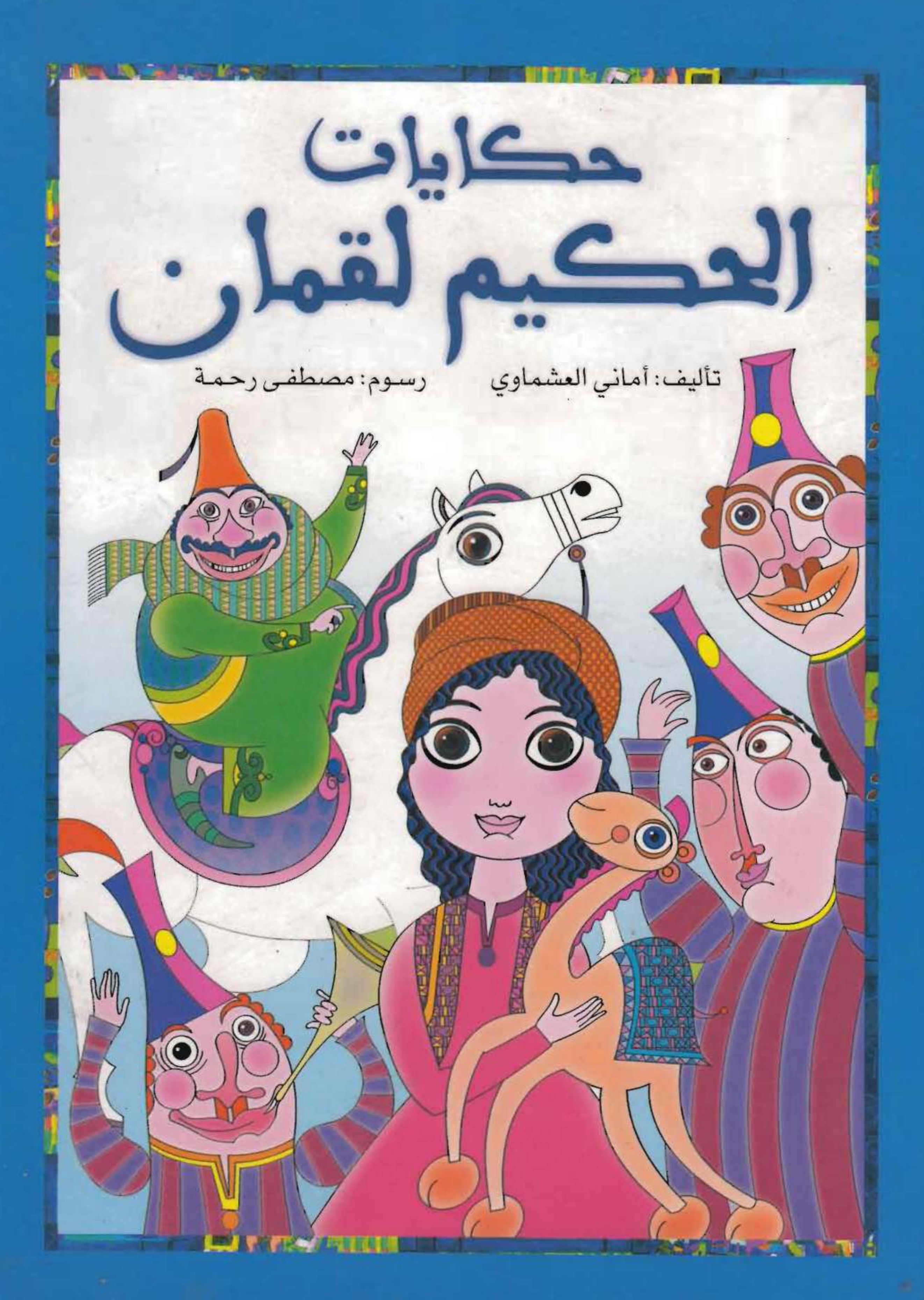
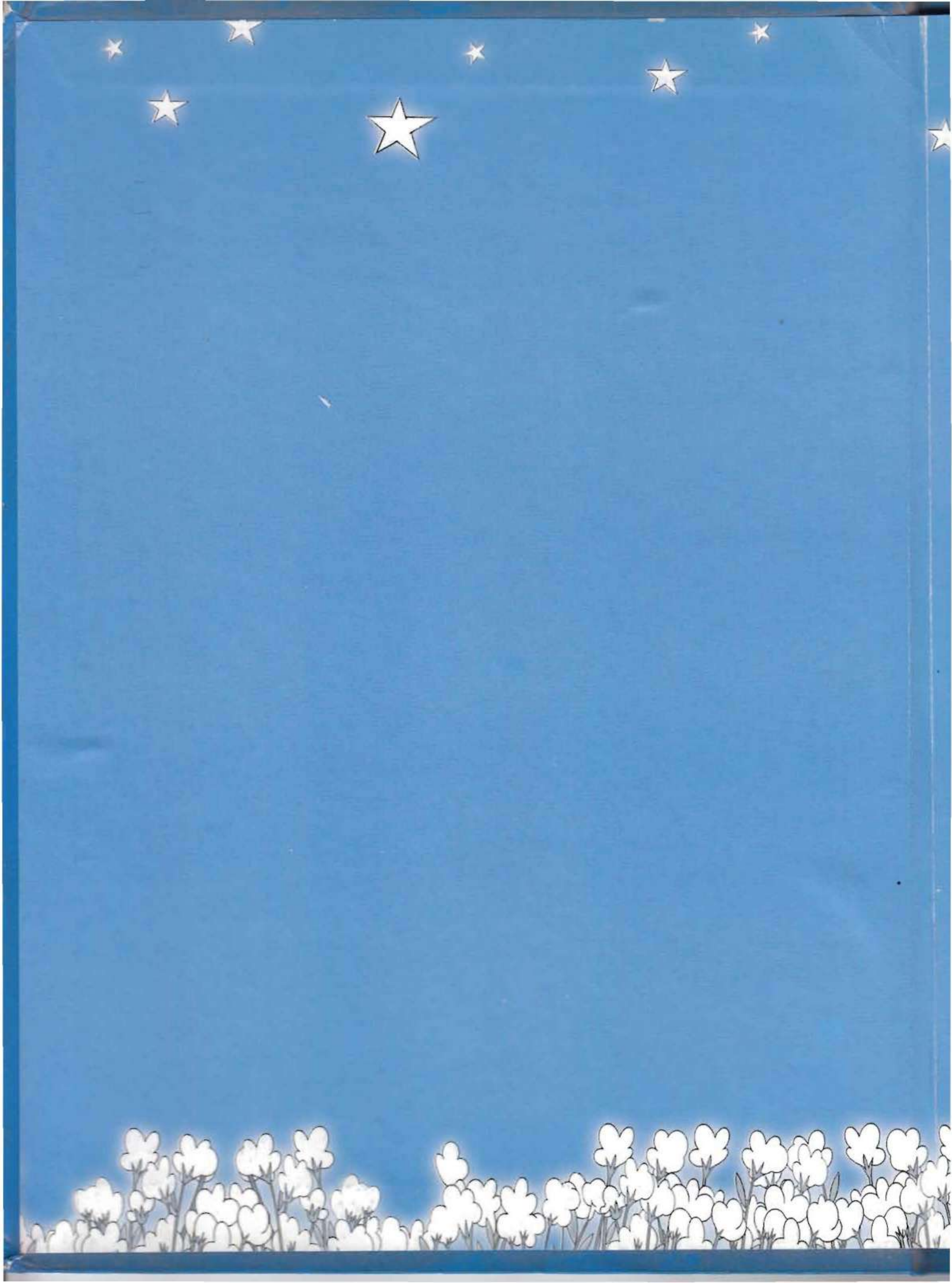
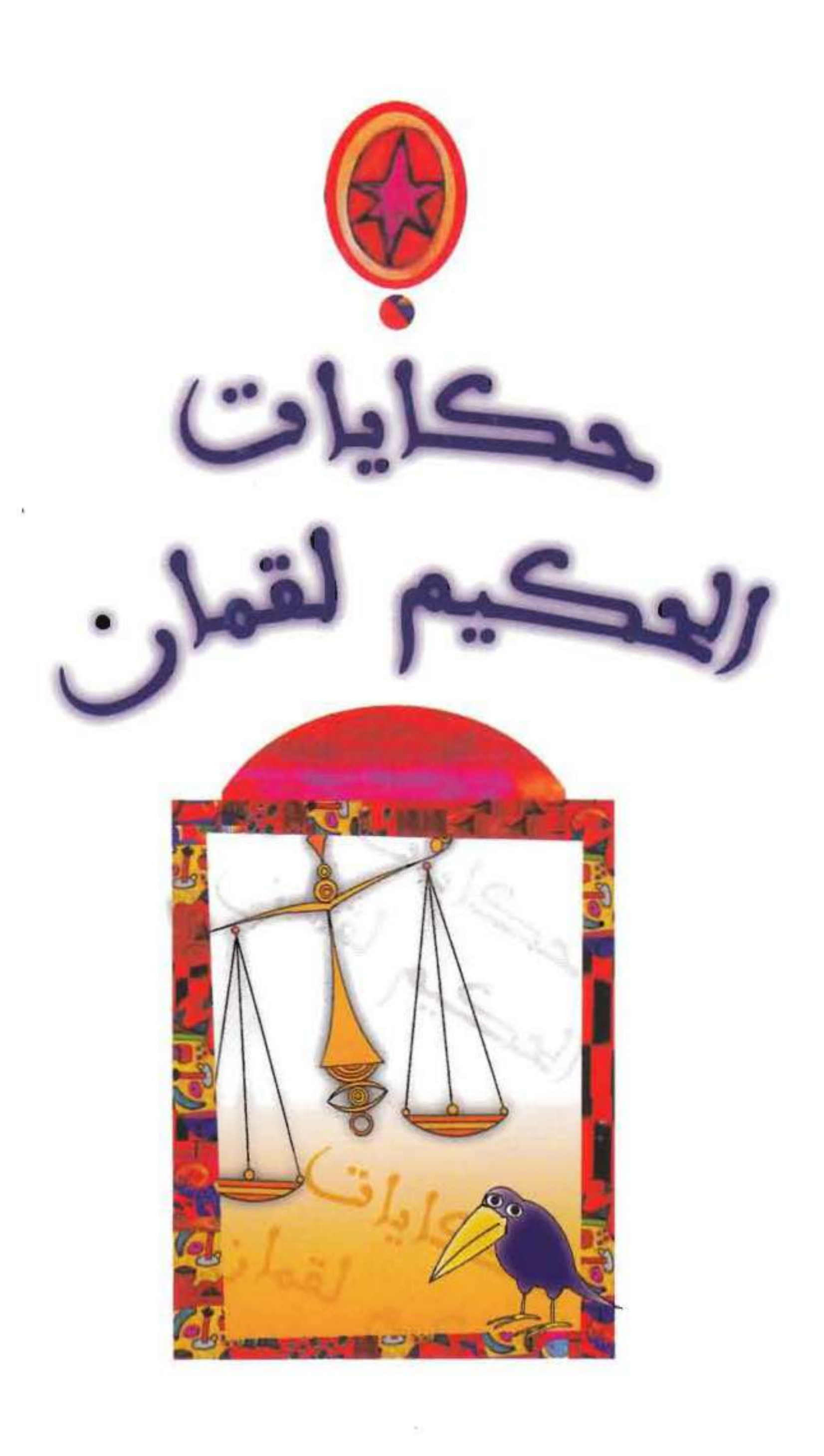

حكايات
الحكيم لقمان
تأليف: أماني العشماوي
رسوم: مصطفى رحمة





أمـانـي العشـمـاوي
رسوم: مصطفى رحمة

دار الشروق



حكايات الحكيم لقمان

الطبعة الأولى 2004

تأليف : أماني العشماوي
رسوم : مصطفى رحمة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2004/2948
I.S.B.N: 977-09-1062-7

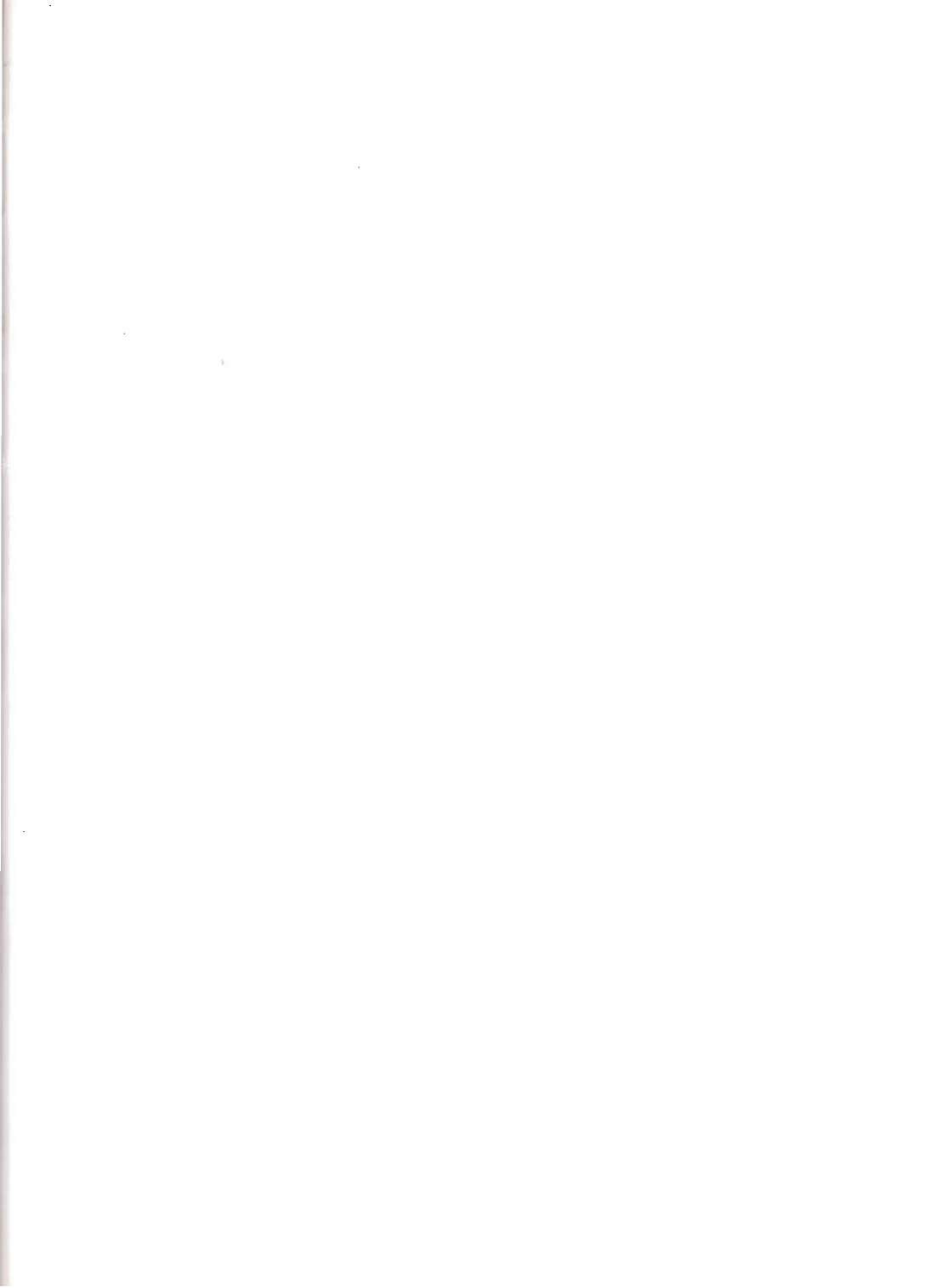
دار الشروق : 8 شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية – مدينة نصر
تليفون : 4023399
فاكس : 4037567 (202)
e-mail:dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إهداء

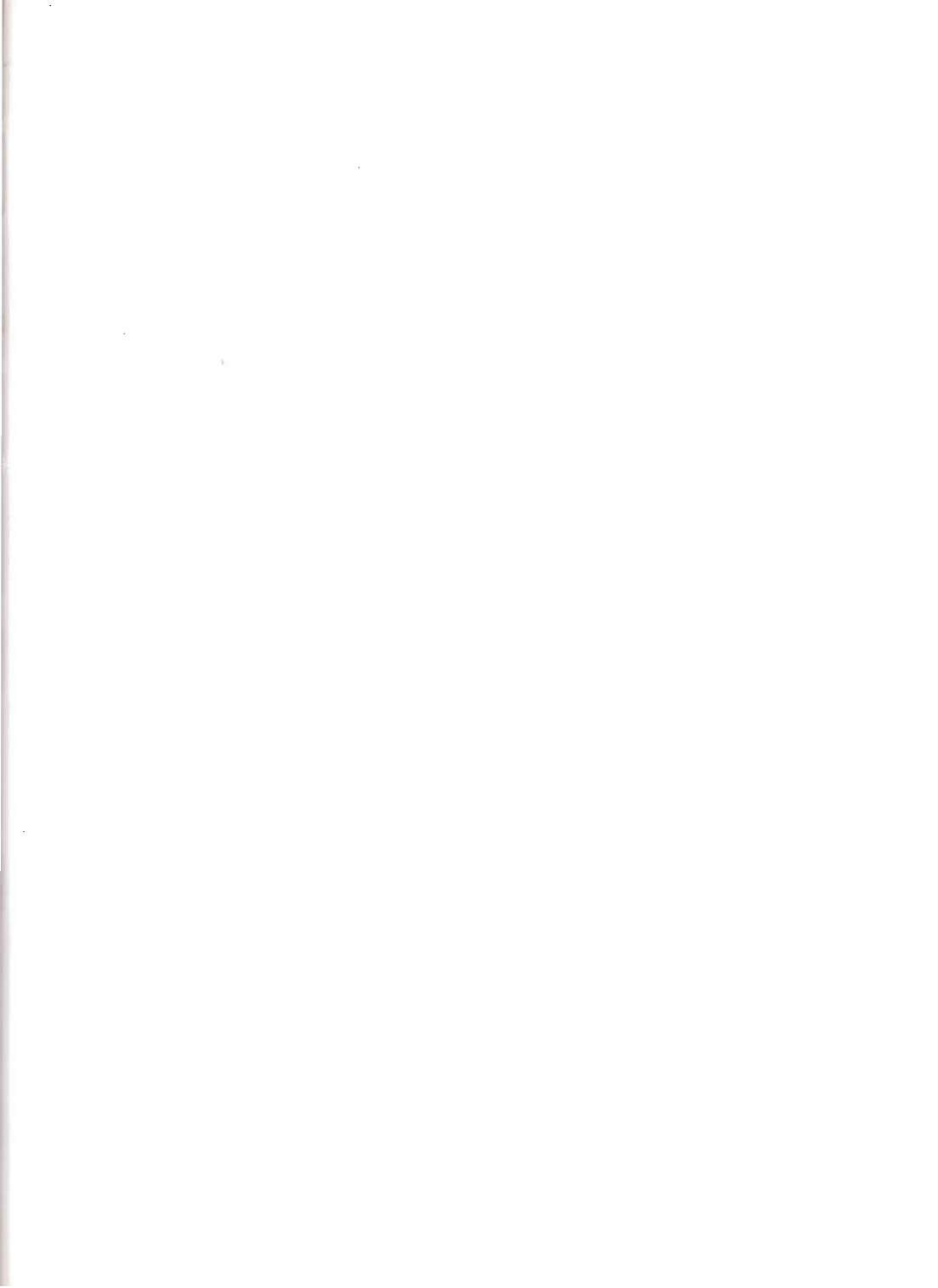
إلى أبي

حسن العشماوي..

..عم سالم الحكيم

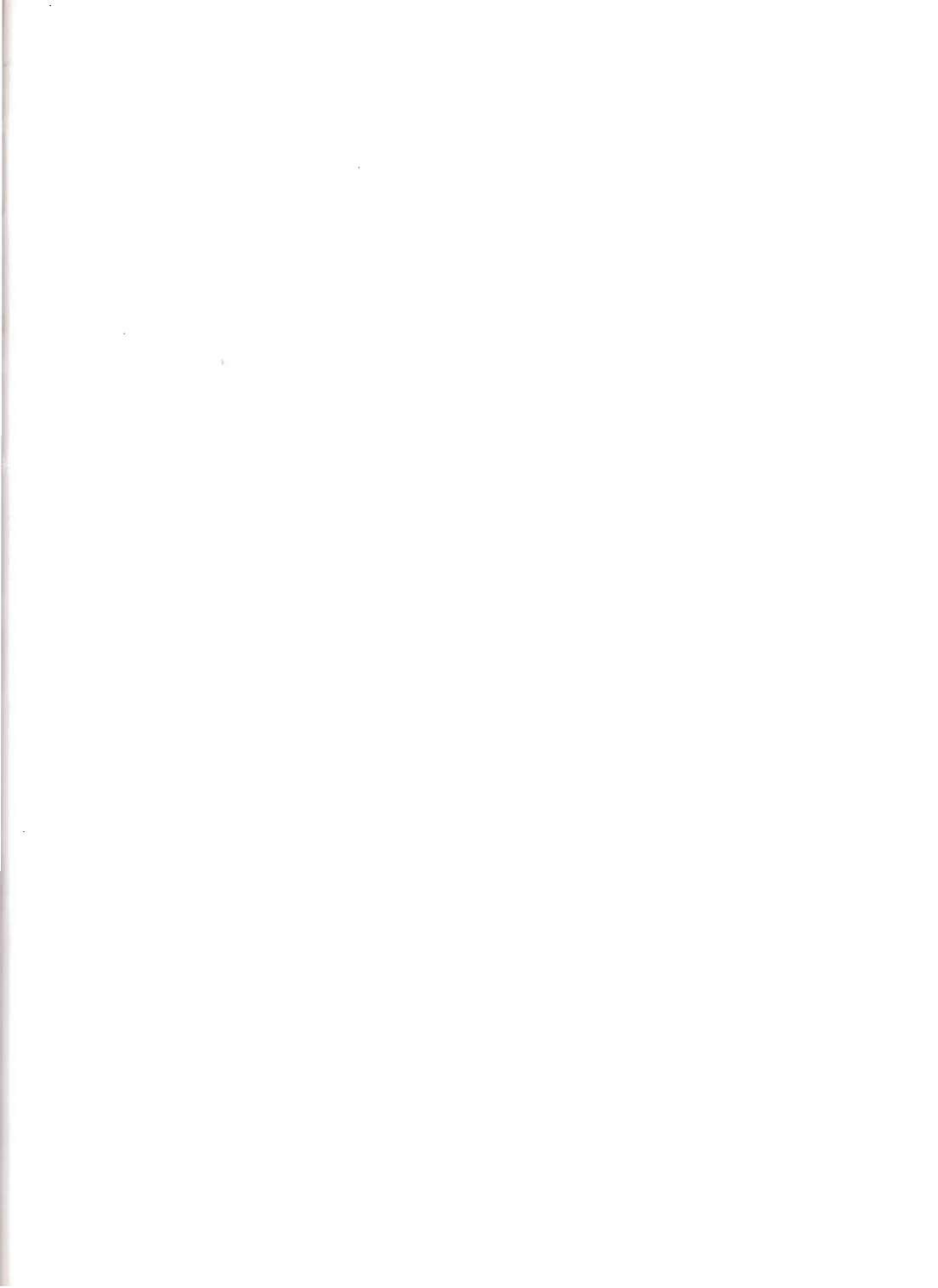






قبل الحكايات

كان رجلاً مهيباً.. أسمر اللون.. رمادي الشعر.
له عينان نافذتان وجبهةٌ عريضةٌ ولحيةٌ خفيفةٌ جميلة.
ذلك هو الحكيم لقمان.. الذي وُلِدَ وتربّى في هذا الوادي.
وعاش بين حقولِه وصحاريه، وعلى سواحلِ بحارِه وشواطئ
نهرِه، وفي مدنِه وعلى جبالِه.
كان الناسُ كلهم أحباءَه وأصدقاءَه.
لكن تلامذَتَه كانوا قليلين.. منهم عمران،
الذي نشأ وتربّى مثله، في هذا الوادي.
كان الحكيم لقمان يعيش على الجبل الشرقي..
فيأتي إليه الكبار والصغار من كل مكان لزيارته واستشارته.
وكان يجوبُ البلاد.. فيساعدُ من يحتاجُ إلى المساعدة،
وينصحُ من يطلبُ النصيحة.
كان رقيقَ القلب.. يحبُّ الناسَ ويرأفُ بهم..
وكان شجاعاً أبياً.. يكره الظلمَ ولا يقبلُ المهانة..
فأحبَّهُ الأقوياء، وتعلموا من حكمته..
وخافه الجبابرة، فحدّوا من طغيانهم..
ولجأ إليه الضعفاء يحتمون به، ويستمدون منه القوة.
ذلكم هو الحكيم لقمان..
الذي أقدم لأهل الوادي بعض حكاياته..



الحكيم لقمان

صَعَدَ الفتى الجبل الصخري.. حتى بلغ قمته، ثم انْحَدَرَ قليلاً تجاه الشرق.

فوصلَ إلى منطقة منبسطة، عليها كوخ صغير من الحجارة.. كان الحكيم لقمان يجلسُ بالقرب منه، في ظل صخرة ناتئة، يصنع سلةً من الخوص.

اقْتَرَبَ الفتى من الحكيم وَحيّاهُ.. ثم قالَ له: «ياعمي لُقمان.. عَلِّمْني مما عَلَّمَكَ اللّه، حتى أُصْبِحَ حكيمًا مثلك».

تَرَكَ الحكيمُ السلةَ، والْتَفَتَ إلى الفتى، وسَأَلَهُ: «لماذا تُرِيُد أن تُصْبِحَ حكيمًا مثلي»؟

رَدّ الفتى: «لأَنْتَفِعَ بالعلم.. ثم أُعَلِّمُهُ للناس.. فينتفعوا به».

سُرَّ الحكيم من إجابة الفتى، فقالَ له: «ولكن طريقَ الحكمة طويلةٌ وشاقةٌ، وتحْتَاجُ لسنوات عديدة من العمل ومجاهدة النفس».

قالَ الفتى بحماس: «أَعْرِفُ ذلك.. فقد أخبرني به والدي.. وقال إن أهل الوادي يستشيرونك في أمور حياتهم.. ويتعلمون منك ما ينفعهم.. ويلجؤون إليك كلما واجهتهم معضلة لا يقدرون على حلها، لذلك أطلقوا عليك لقَبَ الحكيم.. وإن كانوا لا يعرفون من الذي سَمّاكَ لُقمان».

قال الحكيم: «عند مولدي، سَمّاني أبي لُقمان.. تشبيهًا بِلُقمان الذي وَرَدَ ذكرُهُ في القرآن. آملاً أن أكون مثلَهُ في الصلاح والتقوى.. والآن، قل لي.. ماذا يَعْمَلُ والدك»؟

رَدَّ الفتى: «إنه يَعْمَلُ أجيرًا في مزارع الوادي.. وقد أَذِنَ لي أن أَصْحَبَكَ لأَتَعَلَّمَ منك».

قال الحكيم: «يمكنك أن تمْكُثَ معي حتى نهاية العام.. فإن وجدتَ في نفسك القدرة على مواصلة الطريق.. بَقِيتَ معي. وإلا.. تَرَكْتَني وَعُدتَ إلى الوادي».

وهكذا.. أَصْبَحَ عِمران تلميذًا للحكيم لُقمان.. يعيشُ معه على الجبل أيامًا وشهورًا.. ويهبط إلى الوادي من حين لآخر ليرى أمه وأباه.

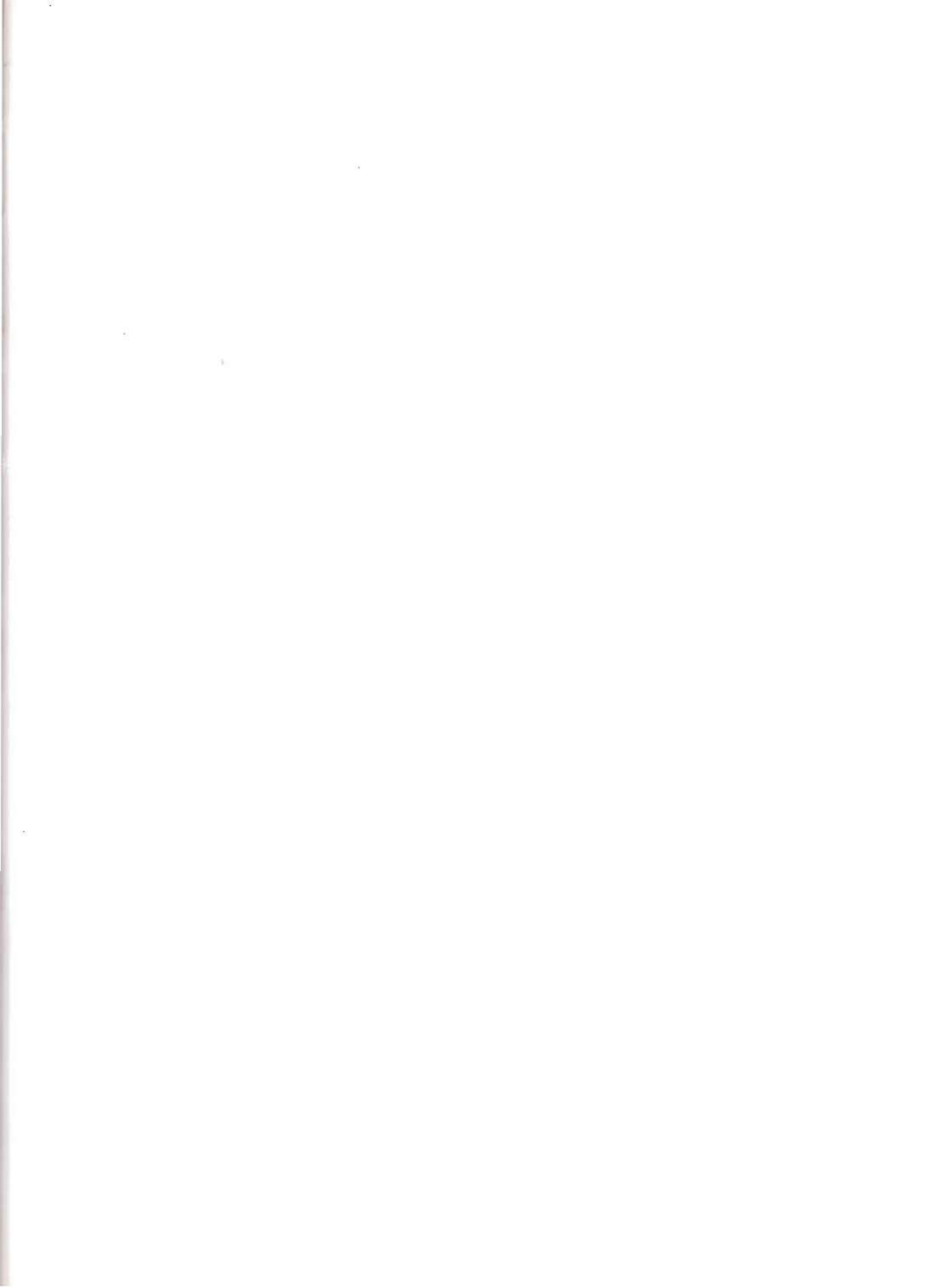
كان يرافقُ الحكيم في رحلاته إلى الوادي، فيكون معه حين يجلسُ مع أهل القرى والكفور.. ويزورُ معه العواصم والبلدان، ويقابُل الملوك والأغنياء، والصعاليك والفقراء..

ويسافرُ معه إلى شواطئ البحار والأنهار، ويلتقي بالبحارة والصيادين والتجار.. ويجوبُ معه الصحارى والغابات.. ويصاحبُ الرحالة والحطابين والرعاة.

وما زال يصحبُهُ في رحلاته إلى اليوم.. يَخْدُمُهُ وَيَتَعَلّمُ منه.




أدهم







أدهم

اجتمعَ الناسُ في ساحة القرية لاختيار عمدتهم الجديد، بعد وفاة العمدة السابق، الذي كانوا يعانون من ظلمه وإهماله.

بعد مناقشات طويلة، وَقَعَ اختيارُهُم على «أدهم»، ابن صاحب الطاحونة. فقد كان شابًا شجاعًا، معروفًا بالعدل والأمانة مثل أبيه.

عادَ أدهمُ إلى بيته مهمومًا يُفَكِّرُ في حاله وحال قريته. فهو لا تَنْقُصُهُ الأمانة والاجتهاد. كما أنه يحبُ الناسَ ويتمنى أن يَخْدِمَهُم.. ولكن، إدارة شؤون القرية ليست كالعمل في طاحونة أبيه، وليست كأي عمل آخر قام به من قبل. وهو لا يدري إن كان بإمكانه القيام بعمل العمدة أم أن أهل القرية سيعانون من جهله وإهماله.

وجد أَدْهَمُ أُمَّهُ في انتظاره، فجلسَ يأكُلُ معها، ويُحَدِّثُها عما يشغله، ويستشيرُها إن كان يَقْبَلُ هذه المهمة أم يَرْفُضُها. فقالت له بهدوئها المعتاد: «اذهبْ إلى الحكيم لُقمان واسألْهُ النصيحة.. فقد اعتادَ أبوك أن يستشيرَهُ في كل أمر مهم.. وكان ينتفعُ دائمًا برأيه».

خرجَ أدهم مبكرًا، وتسلقَ الجبل حتى وصلَ إلى حيث يعيشُ الحكيم، فوجدَه مشغولاً مع تلميذه عمران بتقليب قطعة أرض خلف الكوخ، وإعدادها للزراعة.

رحب الحكيم بأدهم، وقدمَ له بعض الفاكهة، وسألَهُ عن صحة أمه وأخبار الوادي.. ثم اسْتَمَعَ إلى قصة اختياره عمدة.. وتَخَوُّفِه من مسؤولية حكم القرية وإدارتها.

أطرقَ الحكيم بعض الوقت، ثم قامَ فأحضرَ من كوخه حافظةً جلديةً قديمةً.. قَدَّمها لأدهم قائلاً: «إنها ذات خصائص عجيبة. فلا تفتحها، وإنما احتفظْ بها، ولا تدعْها تفارقُ جيبكَ أبدًا.. ثم عليك بعد ذلك أن تسيرَ في طرقات القرية

ودروبها؛ لا تتركْ دربًا مهما كان صغيرًا. وتدخلَ أسواقها وأجرانها وورشها؛ لا تتركْ مكانًا مهما كان حقيرًا. وتتجولَ في حقولها وبساتينها، لا تتركْ شبرًا من الأرض دون أن تمرَ فيه.. احرصْ على ذلك كل يوم، مرة في الصباح الباكر بعد شروق الشمس مباشرة، ومرة أخرى قبل الغروب. وتأكدْ دائمًا من وجود هذه الحافظة معك.. ثم لا تحملْ همًا بعد ذلك.. ولكن، عليك أن تعيدَها إليّ بعد مرور ثلاثة أشهر بالتمام.

شكرَ أدهمُ الحكيمَ، وعاد إلى بيته.. وفي صباح اليوم التالي، بدأ في تنفيذ نصيحَته بكل دقة.

كان أول ما لاحَظَهُ، شقًا كبيرًا في جدار المدرسة، فَكّلَفَ أحد العمال بإصلاحه، ثم ساعَدَ في إزالة القمامة المتراكمة في مصرف المياه.. وفي سوق القرية الأسبوعي، حَرَصَ على فَضِّ المنازعات والإصلاح بين الناس.

كررَ أدهم جولته في المساء. فاكتشفَ مزيدًا من المشاكل التي تحتاجُ إلى حل، والخلافات التي تحتاجُ إلى توفيق.

بمرورِ الوقت، اعتادَ الناس رؤية عمدتهم في هذه الأوقات. فكانوا ينتظرونَه ليستشيروه ويعرضوا عليه ما يَطْرَأُ عليهم من مشكلات.. كما أصبحوا أكثر التزامًا بالنظم والقوانين، لأنهم كانوا على يقين أنه سيكتشف المخالفات، ويعمل على إزالتها.. فتحسنَتْ أحوال الناس، وزادت محبّتُهم له وثقتُهُم في كفاءته.

بعد مرور الأشهر الثلاثة، صعدَ أدهم الجبل

مرة أخرى، وروَى للحكيم ما حدث من تطورات في القرية، وأعاد له الحافظة.. ثم رجاه أن يتركَها له حتى نهاية العام، فقد كان أثرُها عظيمًا عليه وعلى قريته.

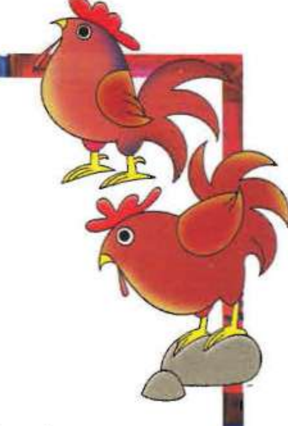
تناولَ الحكيم الحافظة وفَتَحَها.. كانت مجرد حافظة قديمة من جلد الماعز.. ليس بداخلها شيء.

تعجَّبَ أدهم وسألَ بحيرة: «ولكن، ما السرُ في تأثيرها العظيم»؟!.

قالَ الحكيمُ: «يابنيَّ.. لم يكن السرُ في الحافظة، وإنما في جولاتك اليومية في الصباح والمساء.. ففي هذه الجولات عرفتَ مشاكل القرية، فبحثتَ لها عن حل. وتعرفتَ على الناس، فتمكنتَ من خدمتهم بإخلاص. وزادَتْ ثقتُهم بك، فتعاونوا معك.. فإذا داومت على ذلك، بالحافظة أو بغيرها، تَمكَّنْتَ من إدارة القرية على خير وجه.. وربما أصبحتَ قدوةً حسنةً لمن يأتي من بعدك».




أم الرّمام



أم الرّماد

جلس الحكيم لُقمان مع تلميذه عِمران في ظل شجرة عند سفح الجبل، يرقبان الصبية الصغيرة وهي تركضُ نحوهما، وتقفزُ فوق الصخور والنباتات بهمة ونشاط.

كان اسمها وردة، لكنها اشتهرت بين أهل القرية باسم «أم الرماد». تُوُفِّيَت أمها عندما كانت في السادسة من عمرها، فتزوجَ أبوها امرأة أخرى لها ابنة في نفس عمرها اسمها سعاد.

كانت وردة شديدة الحيوية والنشاط، لا تتوقفُ أبدًا عن الكلام أو الحركة. تقومُ بالأعمال التي تُكَلِّفُها بها زوجة أبيها بسرعة واندفاع.. ثم تَترُكها إلى غيرها من الأعمال بنفس السرعة والاندفاع.. فكانت لاتُتمُّ عملاً.. وإذا أتمتْهُ، لاتُتْقِنُهُ.. لكنها كانت طيبةَ القلبِ، رقيقةَ المشاعرِ، لطيفةً ومتسامحةً، تحبُّ الناس وتعطفُ عليهم، تخدمُهم وتبذلُ كل ما في وُسعها لإرضائهم.

كانت الخالة أم سعاد تُشْعِلُ الفرن كل يوم في الفجر لتخبز وتطهُوَ الطعام.. ثم تطلبُ من وردة، عند عودتها من المدرسة، أن تنظفَ الفرن وتجرفَ الرماد. فكانت وردة تقومُ بعملها بهمة وحماس، كعادتها، ثم تخرجُ مسرعة، وقد غطاها الرماد، لتلعبَ مع صاحباتها في ساحة الدار، دون أن تغتسلَ أو تبدلَ ثيابها، لذلك سماها أهل القرية «أم الرماد»!

وقفت وردة أمام الحكيم وقالت له، وهي تحاول التقاط أنفاسها:

«أنقذني يا عمي لُقمان من زوجة أبي»!

أخذ عِمران بيد وردة، وأجلسها في ظل الشجرة، وقدم لها كوبًا من الماء.. ثم جلس إلى جوارها يستمع إلى قصتِها.

شربت وردة الماء بسرعة، ثم قالت باندفاعها المعهود: «إن زوجة أبي لا



تُحِبُّني.. وتعامِلُني بمنتهى القسوة، حتى إنها تركتني اليوم في غرفتي دون غداء.. فَهَرَبْتُ من فوق سطح الدار وأَتَيْتُ إليكَ لتُنْقِذَني».

رَبَتَ الحكيم كتف وردة وقالَ لها : «مهلاً.. مهلاً.. احكِ لي ما حدث بهدوء.. كيف عَرَفْتِ أن زوجة أبيكِ لا تُحِبُّكِ؟».

قالت وردة : «لأنها تكلفُني بأعمال شاقة.. هكذا قالت لي صاحباتي في المدرسة».

سأل الحكيم: «وما هي تلك الأعمال الشاقة التي تكلِّفُكِ بها؟».

ردت وردة بسرعة: «أَمَرَتْني هذا الصباح أن أُطْعِمَ الدجاج ثلاث مرات.. وأن أَكْنُسَ ساحة الدار مرتين.. وأن أغْسِلَ..»

قاطَعَها لُقمان قائلاً: «لننته أولاً من أمر الدجاج.. لماذا أمَرَتْك أن تُطْعِميه ثلاث مرات؟.. أليس في ذلك ضرر عليه؟»!

أطرقت وردة وقالت : «في المرة الأولى، وضعتُ لهم نصفَ كمية الطعام المفروضة.. فأمرتْني أن أَنْزِلَ ثانيةً وأَنْثُرَ لهم الباقي.. ولكني نسيتُ أن أسقيَهُم .. فأمرَتْني أن أعودَ مرة ثالثة وأضعَ لهم ماء للشرب».

ضحك الحكيم وقال: «أي إنك أَطْعَمْتِ الدجاج مرة واحدة.. على ثلاث مراحل..»!!

هزت وردة رأسها موافقة دون أن تنطق.. فسألها الحكيم: «ولماذا كنستِ الساحة مرتين؟».

زادَ خجل وردة، وردَّت بصوت خافت: «كانت الخالة أم سعاد قد كَنَسَتْها في الصباح.. ثم دَخَلْتُها لألعبَ مع أبناء جيراننا.. فكنا نتقاذف بأعواد الذرة وكيزانها الجافة. فامتلأت الساحة قشًا وترابًا، فطلبَتْ مني أن أَكْنُسَها من جديد.. ولكني تركتُ ما جَمَعْتُهُ من قمامة في أحد الأركان، فتطايَرَ مع الريح، وغَطَّى الساحة مرة أخرى.. فأمرتْني أن أُعيدَ كَنْسَها..»

سكتَ الحكيم ولم يُعَلِّقْ.. فقالت وردة باعتذار: «الحقيقة أنني كنتُ أستحقُّ ذلك.. ولكن، ألا ترى أنها تدللُ ابنتها سعاد، وتحضرُ لها معلمة تساعدُها في دروسها.. وتسمحُ لها أن تجلس في حجرتها طول اليوم.. ولا تُكَلِّفُها..»

قاطعها الحكيم قائلاً : «مهلاً يا ابنتي .. لماذا تجلسُ سعاد في غرفتها طول اليوم؟.. ألا تشعرُ بالملل؟.. ألا تحبُّ أن تلعبَ معكم في الساحة؟»..

ردت وردة بحماس: «طبعًا تشعرُ بالملل، وتتمنى أن تلعبَ معنا في الساحة.. لكنها تعاني من مرض يمنعها من السير إلا بمساعدة أمها.. لذلك تتغيبُ كثيرًا عن المدرسة، وتحتاجُ لمساعدة المعلمة.. وتقضي وقتها في حجرتها.. وتعلمُها أمها التطريز والحياكة. وتُعَلِّمُني أنا أيضًا.. لكني أُفَضِّلُ اللعب مع صاحباتي.. وقد طلبَتْ مني اليوم أن أرفو ثوبي قبل أن آخذ الغداء لأبي في الحقل.. لكني رفضتُ، وصعدتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ بابها، ولم أستطع فتحها فقفزتُ من فوق السطح إلى بيت جيراننا.. وأتيتُ إليك لتنقذني.»!!

سكت الحكيم قليلاً، فقام عِمران وأحضرَ لوردة كوبًا من الحليب وفطيرة مغطاة بالعسل.. فشكرتْهُ، وجلستْ تأكل في صمت.

بعد فترة، قال لُقمان: «يبدو لي أنك أنت المدللة.. وأن سعاد صبية مسكينة».

قالت وردة بسرعة: «نعم..نعم..إنها صبية مسكينة فعلاً..وليس لها أصدقاء.. هل تظنُّ أني فتاة سيئة لأني لم أصادقْها، ولم أجلسْ معها في حجرتها؟.. هل تظن..»

أشار لُقمان لوردة كي تتوقفَ عن الكلام..

ثم قالَ لها: «انتظري قليلاً .. سوف أقصُّ عليك قصة قديمة وشهيرة.. ثم نرى ما الذي عليك عمله بعد ذلك».

«كان يا ما كان.. في سالف الزمان.. فتاة صغيرة اسمها أم الرماد.. تُوُفِّيَتْ أمها، فتزوج أبوها امرأة أخرى، لها ابنة صغيرة في نفس عمرها.. ثم تُوُفِّيَ الأب. وعاشت أم الرماد مع زوجة أبيها».

«تقولُ الحكاية إن زوجة الأب كانت تسيءُ معاملة أم الرماد، وتكلّفُها بأشق الأعمال، في حين تجلسُ ابنتها في غرفتها طول الوقت... وذات يوم، دعا الملك أهل المدينة كلهم إلى حفل راقص في قصره. فَذَهَبَتْ زوجة الأب مع ابنتها، وتركَتْ أم الرماد وحدها في البيت».

قاطعته وردة قائلة : «أعرفُ هذه القصة.. إنها قصة سندريلا.. وقد قالت لي صاحباتي إنها تشبه قصتي».

قال الحكيم: «هذا صحيح.. إنها تشبهُ قِصَّتَكِ تمامًا. حتى إن كلمة سندريلا معناها باللغة العربية أم الرماد. فقد كانت سندريلا تَخْرُجُ، وقد غطاها الرماد، لتلعبَ مع الدجاج والعصافير في ساحة البيت، بعد أن تنظفَ المدفأة، ودون أن تغتسلَ أو تبدلَ ثيابها».

قالت وردة بتعجبٍ: «مثلي تمامًا.. وربما كانت الفتاة الأخرى مريضة مثل سعاد.. فكانت أم الرماد تقوم بالأعمال المنزلية بدلاً منها».

أكملَ الحكيم: «وربما رفضَتْ سندريلا - أم الرماد - أن تذهبَ إلى حفل الملك في أول الأمر.. ثم نَدِمَتْ بعد أن غادَرَتْ زوجةُ أبيها البيت.. فجلسَتْ تبكي وتبكي.

حتى أشفقَتْ عليها عرابَتُها العجوز، فقدمَت لها الملابس الفاخرة، والعربة الذهبية والخيول، وأرسلَتْها إلى الحفل».

أطرقَتْ وردة وهي تقول: «وربما رفضَتْ أم الرماد - سندريلا - أن تنزلَ من غرفتها لتقيسَ الحذاءَ الزجاجيَّ الذي أحضره مندوب الملك.. ثم نَدِمَتْ بعد ذلك، وقفزَت من فوق سطح البيت.. ونزلَت، وقاسَتْه. فاتضحَ أنه مناسب لها. فتزوجها الأمير».

قال الحكيم: «مثلما تفعلين تمامًا».

قالت وردة: «نعم.. نعم.. ففي كل مرة تطلبُ مني الخالة أم سعاد أن أقومَ بأي عمل، أرفضُ في أول الأمر.. ثم أعودُ وأندمُ.. فقد طلبَتْ مني بالأمس أن أُحْضِرَ لك رسالة من أبي.. ولكني رفضتُ.. ثم ندمتُ ورجوتُها أن تسمحَ لي بإحضارِها.. لكنها كانت قد أرسلتها مع ابنة عمي.. فصعدتُ إلى غرفتي، حزينة أبكي، لأنها حرمتني من زيارتك.. ألا ترى ياعمي لُقمان أنها حرمتني من زيارتك؟».

قال لُقمان: «أرى أنك أنت التي حرمت نفسك من زيارتي».

هزت وردة رأسها موافقة.. وكانت قد انتهت من أكل الفطيرة، فوقفت استعدادًا للعودة إلى دارها.. فسلمت على الحكيم وعمران، وشكرتْهُما.. ثم قالت بعد تردد: «ولكن.. ألا ترى يا عمي لُقمان أن الخالة أَم سعاد تحاولُ دائما أن..»

ضحك الحكيم وقال: «في الحقيقة.. إنني لا أرى إلا فتاة صغيرة اسمها وردة.. يمكنُها أن تكونَ أسعدَ فتاة في القرية كلها.. لكنها تحاولُ أن تتعسَ نفسها.. وتبحثُ دائما عن مشكلة تشتكي منها».

فكرت وردة قليلاً، ثم قالت: «نعم.. هذا ما أراه أنا أيضًا».

ثم انطلقتْ تجري نحو دارها.. لتساعدَ الخالة أم سعاد في إعداد الطعام.. ولتكونَ في انتظارِ أبيها عند عودته من الحقل وقت غروب الشمس.


الأمير
شدّاد



الأمير شدّاد

كان الجو عاصفا والأمطار غزيرة، وصوت الرعد يَصُمُّ الآذان.. وكان الحكيم لُقمان يجلسُ مع تلميذه عِمران أمام الموقد يشربان الشاي.. وفجأة انفتحَ بابُ الكوخ، ودخلَ مسعود وهو يَقْطُرُ ماءً وَيَرْتَجِفُ من البرد.

قامَ عِمران وأجلس مسعودًا مكانَه أمامَ الموقدِ، وساعدَه في خلعِ ردائِه، وألبسَه عباءة صوفيةً. ثم قَدّمَ له حساءً ساخنًا.

استجمعَ مسعود قواه وقال: «ياعمي لُقمان، إن مولاي الأمير شدّاد يريدُك الآن، لأمر مهم وعاجل».

كان مسعود فتًى يتيمًا، يعمل مرافقًا للأمير شدّاد.. كما كان أبوه من قبله مرافقًا لوالد الأمير.. لكن شدّاد، على عكس أبيه، كان رجلاً قاسيًا، لا يرحمُ من يعملون في خدمته، ولا يتورع عن تكليفهم بما يشق عليهم.

قال عِمران وهو يصبُّ صحنًا آخر من الحساء لمسعود: «يبدو عليك التعب الشديد.. كأنك لم تنمْ منذ زمن».

قال مسعود بإعياء: «هذا ما حدثَ فعلاً.. فقد أرسلَني الأمير شدّاد مساء البارحة إلى الأمير صفوان ليدعوه إلى رحلة صيد، ثم أمرَني أن أخرجَ معهم في تلك الرحلة، ثم بعثَني الآن لاستدعاء عمي لُقمان، وتَوَعَّدَني بالحبس في جب القلعة إذا لم أرجعْ قبل الليل.. لقد تركتُ مجلس الأمير في الظهيرة، لكني ضللت طريقي في العاصفة حتى غربت الشمس».

قامَ الحكيم وهو يقولُ لمسعود: «ابق أنتَ هنا.. ولا تغادر الكوخ حتى تنتهي العاصفة»... ثم التفَّ بردائه، وحمل خرجَه.. وكذلك فعل عِمران وخرجا...

أما مسعود، فقد تمدد على الأرض أمام الموقد وراح في نوم عميق.

عندما وصلَ الحكيم وتلميذُه إلى القلعة، كانت العاصفة قد هدأَت وظهر القمر ساطعًا في السماء.. فرحب به الحرس، وصحبوه إلى غرفة الأمير.. فوجده راقدًا في فراشه وقد اصفر وجهه وبدا عليه الجزع.. فحياه، ووقف بالقرب منه صامتًا ينتظر.

صرفَ الأمير من حوله بإشارة من يده، ثم قال للقُمان بصوت واهن: «أنقذْني أيها الحكيم.. فالسم يسري في دمي ويقتلُني».

تنهَّدَ الأمير ثم أَكْمَلَ: «خرجتُ للصيد مع الأمير صفوان، وفي أثناء الغداء، خدعَني وسقاني شرابًا مسمومًا.. فإذا لم تعطني ترياقًا يَشفيني.. فسوف أموتُ قبل انقضاء يوم الغد».

سألَه الحكيم: «لماذا أُنْقذُكَ من الموت؟.. هل تستحقُّ الحياة حقًّا؟» ..

ردَّ الأمير بغضب: «كيف تسألني إن كنتُ أستحقُّ الحياة؟!!.. ألا تعرفُ من أنا.. أنا الأمير شدّاد.. سيد هذه القلعة، وحاكم هذه البلدة..»

قال لُقمان بهدوء: «ما دمتَ سيدًا عظيمًا.. فلابد أنك لا تحتاجُ إلى مساعدتي.. سأترُكُكَ إذن وأعودُ إلى مسكني.. ولن أزعجَك بأسئلتي».

هتف الأمير بيأس: «انتظرْ.. لا تذهبْ.. فأنا في حاجة إلى ترياقك.. وشعبي في أشد الحاجة إلى بقائي حاكمًا.. ألا ترى ما قمتُ به من أعمال مجيدة في سبيل البلاد؟»

سأل الحكيم: «وما هي تلك الأعمال العظيمة التي قمتَ بها؟!!»

أجهدَ الأمير فكره، ثم قال: «بنيتُ برجًا جديدًا للقلعة، وحفرتُ حولها خندقًا، وزرعتُ أصنافًا فريدة من الفاكهة، وجلبتُ خيولاً أصيلةً لفرساني، وكسوتُهم بثياب من حرير..»

قاطعَه لُقمانَ قائلًا: «بنيتَ برجًا لتراقبَ منه أهل البلدة، وحفرتَ خندقًا لتمنعَهم من الوصول إليك،

وزرعتَ فاكهة لتأكلَها..أو تتباهى بها أمام ضيوفك، وكسوتَ فرسانك حريرًا في حين لا يجد الناس صوفًا يحميهم من البرد.. لا أظن أن أحدًا من أهل البلاد، أو فرسانك ومرافقيك، يحبُك، أو يتمنى شفاءك».

جلسَ الأمير في فراشه وصاح: «إن رجالي يعرفون فضلي عليهم، ويتمنون أن أعيش إلى الأبد.. كما أن أهل البلاد يحبونني.. ويصطفون كل يوم ليحيوني ويهتفوا باسمي».

هز الحكيم رأسه وقال: «ليس هذا بدليل على حبهم لك أو رغبتهم في شفائك».

أسند الأمير رأسه على الوسائد من جديد وقال: «إذن.. استدعِ من شئت من العاملين في القلعة، واسألهم.. لتتأكدَ بنفسك».

قال الحكيم: «إذا أردت أن تتأكدَ أنت من مقدار حب الناس لك وسعادتهم بحكمك، فتعالَ معي نتجولُ في البلدة، ونسألهم دون أن يتعرفوا عليك، وأنا على يقين أنك لن تجدَ رجلاً واحدًا أو امرأة أو طفلاً يحبك، أو يتمنى أن تعيش يومًا واحدًا».

قال الأمير بتردد: «لابد أن هناك من يحبني».

قال لُقمان: «إذا وجدنا شخصًا واحدًا يحبُك ويتمنى لك الحياة.. فسوف أصنعُ لك ترياقًا يَشْفِيكَ من السم.. أما إذا أشرقَت شمسُ الغد دون أن نعثرَ على من يحبُك ويحزنُ لموتك.. فسوف أَتْرُكَكَ لمصيرك».



وافقَ الأمير مضطرًا،
فقام ولبسَ رداءً من
الصوف الخَشِنِ، وتَلَثَّمَ
حتى لا يتعرف عليه أحد.. وخرج من باب سري في أقصى الغرفة..وهم
الحكيم بالخروج خلفه. لكن عِمران جذبه من طرف ردائه وقال له: «اتركْه

لمصيره وخَلِّص الناس من أذاه.. إنه لا يستحقُّ الحياة». قال الحكيم بهدوء: «انتظرْ حتى تنتهي جولتُنا.. لعلنا نجدُ من يحزنُ لموته».. ثم خرج وراء الأمير، وتبعه عمران.. فهبطوا سُلَّمًا حجريًا، وساروا في ممر تحت الأرض، أفضى بهم إلى فتحة بالقرب من سور القلعة.

كانت معالم المدينة تبدو واضحة في ضوء القمر، فساروا صوبها، وفي الطريق، التقوْا بشابين عَائِدَيْنِ من الحقل، فسألهما الحكيم عن حاكم البلدة، فقالا: «نحن نُسَمِّيه شدّاد الذي لا يرحم، لأنه يُسَخِّرُ المزارعين للعمل في مزارعه دون أجر، ويتمنى أهل البلدة كلهم أن يتخلصوا منه».

التفتَ الحكيم إلى الأمير.. فرآه يطأطئُ رأسه وينظرُ إلى الأرض بقلق، فأخذَه من يده وسارَ به في طرقات المدينة.

وصلَ الثلاثة إلى ساحة البلدة، فوجدوا بها عددًا من النساء يتسامرن، فسألهن لُقمان عن الأمير، فقالت إحداهن: «إنه رجل ظالم».. وأيدَتها ثانية: «يستولي على طعامنا ويعطيه لخيوله».. وأكملت ثالثة: «ليته يموتُ فنرتاحُ من ظلمه».

انكمشَ الأمير على نفسه، وسار مبتعدًا.. فلحقه الحكيم وعمران حتى رَأَوْا رجلاً عجوزًا يجلسُ ساهمًا أمام بيته، فسألَه الحكيم عن الأمير، فقال: «إنه يظلمُ الكبيرَ والصغيرَ، والغنيَّ والفقيرَ.. والناسُ كلهم يكرهونه.. وأنا أوَّلُهُمْ».

وهكذا طافَ الحكيم طولَ البلدةِ وعرضَها.. يسألُ الناس نفسَ السؤال، ويسمعُ منهم نفس الإجابات.. حتى اقتربَ الفجر، فتوجهَ نحو القلعة، والأمير شدّاد يمشي وراءه.. يَجُرُّ قدميه ويتعثرُ في سيره من شدة الضعف والخجل.

تَجَوَّلَ الحكيم داخل القلعة، يَتْبَعُهُ عمران والأمير، وكلما التقى بأحد من حراسها أو العاملين بها، سألَه عما حدثَ للأمير، فكانوا كلهم يَتَمَنَّوْنَ مَوته، ولا يأسفون لما أصابه.

عاد الثلاثة مرة أخرى إلى بوابة القلعة.. فشاهدوا قائد الحرس يخرج خائفًا مضطربًا. فاعترضه الحكيم وسأله عما به، فقال: «لقد اختفى الأمير، ولا ندري

إن كان قد ماتَ أم اختطَفَهُ أعداؤه.. سأكونُ أسعد الناس لو ماتَ أو اختفى إلى الأبد.. ولكني أخافُ أن يعودَ، فيعاقِبُنا لأننا لم نْجتَهدْ في البحث عنه وإنقاذه».

التفتَ الحكيم إلى الأمير شدّاد.. فوجدَه قد انهارَ تمامًا، وجلس على الأرض، وأسند ظهره إلى السور، ونظرُهُ مُتَّجِهٌ نحو الشرق، يَرْقُبُ ظهور الشمس.



في تلك الأثناء.. كان مسعود قد استيقظَ من نومه وخرجَ من الكوخ، فوجدَ الجو صحوًا، والفجر قد اقتربَ.. فانطلقَ يهبطُ الجبل ويجري نحوَ القلعة.. فوصلَها قبل شروق الشمس بدقائق قليلة.. ووجدَ على بابها لُقمان الحكيم وصحبه.

سأل مسعود بلهفة: «كيف حال الأمير؟».

قال الحكيم: «ما زال حياً».

قال مسعود بارتياح: «الحمد لله».

دبَّ النشاط في الأمير.. فهبَّ واقفًا وسأل مسعود: «هل تحب الأمير؟.. هل تحزن لموته؟».

لم يتعرفْ مسعود عليه، فرد ببراءة: «نعم، سوف أحزن لموته».

سأله عِمران بتعجب: «كيف تحزن لموته وهو ظالم؟!.. ألا تذكر معاملته لك؟!».

قال مسعود: «أذكر ذلك طبعًا.. ولكني أُشْفِقُ عليه أن يموتَ وهو ظالمٌ.. وأتمنى أن يعيشَ حتى ينصلحَ حالُهُ ويصبحَ عادلاً مثل أبيه».

في تلك اللحظة.. نظرَ لقمان إلى الشرق، فرأى الشمس تظهرُ بالتدريج من الأفق، ثم نظرَ إلى الأمير شدّاد.. فَنَكَّسَ الأمير رأسه وقد طغى عليه شعور قوي بالندم والخجل..

وسار متعثرًا حول السور، يتبعه الحكيم وعِمران.. فدخلوا من الفتحة السرية، وعبروا الممر، وصعدوا السُّلَّم الحجري.. حتى وصلوا غرفة الأمير.

اتجه الأمير إلى فراشه وَتَمَدَّدَ عليه.. أما الحكيم، فأخرجَ من خرجه أدويته وأدواته.. وأعدَّ الترياق، وقَدَّمَهُ إلى الأمير.. فتناوَله وهو لا يجرؤ على النظر في عيني الحكيم.

تركَ لُقمان وتلميذه الغرفة في صمت.. وغادرا القلعة عائدَيْن إلى الجبل.


حسّان



حسّان

استيقظَ حسان مبكرًا.. فطوى فراشه ووضعَه في ركن الحجرة، ثم خرجَ مسرعًا إلى مطعم الفول والفلافل المجاور لبيته.. فَعَملَ طول الصباح، بهمة ونشاط، في تنظيف الموائد وخدمة الزبائن.. حتى حانَ وقتُ الظهيرة. فعادَ إلى بيته حاملاً ما تبقى من شطائر الفول والفلافل.. فتغدى بها مع أمه وأخته الصغيرة.. ثم تمددَّ على الأرض ووضَعَ رأسَهُ على فراشه المطوي.. ونامَ.

كان حسان يعملُ في العطلة الصيفية ليساعدَ أمه في تكاليف المعيشة ونفقات دراسته.. كان في الثالثةَ عشرةَ من عمره، لكنه كان ضئيل الجسم يبدو أصغر من سنه. كما كان ضعيفًا لا يستطيعُ الدفاع عن نفسه. لذلك اعتادَ أن يتحملَ الزجر والإهانة بخضوع واستسلام.

استيقظَ حسان مرة أخرى قبيل المغرب، فغادرَ بيته، وسار متثاقلاً إلى مخبز العم كرم.

على باب المخبز.. جلسَ العم كرم على مقعد خشبي يشربُ الشاي، وقد صُفَّت أمامه مجموعةٌ من السلال، معلقٌ على أطرافها أقراصٌ من السميط، وبداخلها قطعٌ صغيرة من الجُبْن الرومي، مغلفة بالورق الأبيض.

قالَ حسان: «مساء الخير يا عم كرم».. ردَّ الرجل التحية بهزةٍ من رأسه. ثم أشارَ بيده إلى إحدى السلال، فتناولَها حسان في صمت، وسارَ بها نحو شاطئ النهر.

على الشاطئ، راح حسان يتمشى حينًا، ويجلس حينًا.. ويبيع السميط والجبن لمن يتمكن من الوصول إليه من المتنزهين، في غفلة من البائعين الآخرين، الذين كانوا أكبر منه وأقوى.

لمح حسان رجلاً كبير السن يحدثُ شابًا جالسًا إلى جواره على مقعد حجري تُظللُه شجرةُ كافور ضخمة. فسارَ نحوهما.. وراح يتمشى أمامهما ببطء.. وهو يتلفتُ حوله.

كان الحكيم لُقْمان مشغولاً بالحديث مع تلميذه عِمْران.. وبعد مدة، رفعَ

رأسه، فرأى حسان حاملاً سلة السميط، فقال لعمران: «ما رأيُك لو تعشَّيْنا سميطًا وجبنًا؟». رد عمران: «ونشربُ عصيرًا من المقهى القريب».

أشارَ الحكيم بيده، فاقتربَ حسان بحذرٍ، ووضعَ سلتَه على الأرض.. لكنه سَمِعَ صوتَ غلام يقولُ له بحدة: «ابتعدْ من هنا. لقد أشارَ هذا السيد لي أنا».

في الحال، حمَلَ حسانٌ سلتَه وابتعدَ. فتقدمَ الغلامُ مكانه، ووضعَ سلتَه أمام الحكيم.. وراح يعرضُ بضاعته.

قال لُقمانُ للغلام بغضب: «لقد أشرتُ له.. فلماذا طردتَهُ»؟!

تفرسَ الغلام في وجه الحكيم ولم يردْ..فقد اعتادَ أن يبطشَ بحسانٍ، واعتادَ حسانٌ أن ينهزمَ أمامه، حتى تصورَ الغلام أن من حقه دائمًا أن يغتصبَ حق حسان.

وجهَ الحكيم كلامه إلى حسان قائلاً: «لماذا تركتَ حقك وهربتَ؟.. تعال هنا.. إننا نريدُ أن نشتري منك أنتَ، وليس منه».

تقدمَ حسانٌ بتردد، لكن الغلام لوّحَ بيده في وجهه مهددًا.. فتراجعَ إلى الوراء بسرعة.. حتى اصطدم بالشجرة، وسقطت السلة إلى جواره على الأرض.. وعادَ الغلام يعرضُ بضاعته.

قال لُقمان لحسان: «تعال.. لا تهربْ». فأشارَ حسان إلى الغلام وقال بخوف: «سوف يضربُني». قال الحكيم: «وماذا لو ضربَك؟.. إن الجبنَ والخوفَ يؤلمان أكثر من الضرب.. أليس كذلك؟»..



ثم التفَت إلى الغلام وقال له: «ألا تعرفُ أنه أقوى منك؟.. ويمكنُه أن يغلبَك؟».

ثم عادَ وخاطبَ حسانا قائلاً: «تقدمْ.. دافعْ عن حقك.. لا تسمحْ له أن يهزمَك».

حملَ حسان سلته وتقدمَ.. ووضعَها أمام الحكيم وعمران.. فلم يصدق الغلام ما حدثَ.. فضربَ الأرض بقدمه، وَدَفَعَ حسانًا في صدره.

همَّ حسان بالتراجع.. لكنه استجمع شجاعته وَقلّدَ الغلام.. فضربَ الأرض بقدمه، ومدَّ يده كأنه يَدْفَعُهُ في صدره، لكنه لم يجسرْ على لمسه.

بُهتَ الغلام، وتراجع قليلاً.. فقال الحكيم لحسان مشجعًا: «أرأيتَ كم أنت قوي؟.. لا تتركْ حقك أبدًا.. ولا تخفْ أبدًا.. الخوفُ هو الهزيمةُ».

شعرَ حسان بالانتعاش، فأخذ نفسًا عميقًا، ثم ابتسمَ لأول مرة، ووقفَ يعرضُ سميطه.. وهو ينظُر إلى الغلام من حين لآخر بطَرَفِ عينيه.

أما الغلام، فوقفَ مندهشًا إلى جوار زملائه البائعين، الذين تجمعوا لمراقبة التحول العجيب الذي طرأ على سلوك حسان.

اشترى الحكيم سميطًا وجبنًا، وطلبَ من حسان أن يُحْضرَ لهما كوبين من العصير من المقهى القريب.. ثم قال له: «ما رأيُكَ لو تَعَشَّيْت معنا؟.. خذْ، هذا ثمنُ ما اشتريناه، وهذا ثمُن عشائك.. هديةٌ منا لك، ومكافأةٌ على شجاعتك».

تناولَ حسان النقود بسعادة وأسرعَ إلى المقهى.. ثم عاد حاملاً كوبين من العصير، قدَّمهما إلى الحكيم وتلميذه، وكوبًا ثالثًا أمسكه بإحدى يديه وعلقَ السلة على كتفه.. وأمسكَ قرصَ السميط المحشو جبنًا بيده الأخرى.. وراحَ يمشي بتمهلٍ أمام البائعين، والمتنزهين، وأصحاب المقاهي والدكاكين.. وهو يأكُل ويشربُ.. ويستمتعُ، لأول مرة في حياته، بمذاق الطعام والشراب الممزوج بطعم الشجاعة والكرامة.

في نهاية السهرة، قامَ الحكيم وتلميذه لينصرفا.. فشاهدا حسانا في طريقه إلى بيته، وهو يُلَوِّحُ بسلته الفارغة، وَيَقفزُ ويَحْجِلُ بمرح، ويبتسمُ للناس ويحييهم. ويغني لنفسه بصوت هامس: «الخوفُ هو الهزيمةُ.. والجبنُ يؤلمُ أكثر من الضربِ».


أسامينا



سارَت القافلة بين القرى والحقول حتى نهاية الوادي، ثم توغَّلتْ في الصحراء، في طريقها إلى «واحة السدر» في «وادي البان». عندئذ التفتَ عِمران إلى معلمه وقال له: «علمتُ أنك لم تزرْ واحة السدر منذ عشر سنوات. وأنه قد ساءَك يومئذ حالُها وحالُ أبنائها.. فهلا حَدَّثْتَني عن تلك الزيارة».

قال الحكيم: «كان السيد عبدالسلام، وهو من رجال الواحة المشهود لهم بالعقل والحكمة، قد أرسل رسولاً يدعوني لزيارتهم، لبحث أمور يلزمُ أن أراها بنفسي».

صمتَ لُقمان فترة وهو يتأملُ الصحراء من حوله، ثم راحَ يسترجعُ أحداثَ زيارته الأخيرة لواحة السِّدر، وَيقُصُّها على عِمرانَ.. منذ اللحظة التي وصلتْ فيها القافلة إلى الساحة الرئيسية.



فوجئَ الحكيم، وهو لا يزالُ على ظهر الناقة بالأضواءِ الكثيرة المنبعثة من مصابيح الزيت المنتشرة فى الساحة، وبصياح الباعة والمشترين، وضجيج الناس والحيوانات... وصدَمت عينيه اللافتات المنتشرة فى كل مكان تدعو الناس إلى زيارة معالم الواحة، وَتحُضُّهم على شراء أنواع البضائع المختلفة.

عَبَرَ الحكيم الساحة، وسارَ نحو النبع الذي تحيطُ به البساتين.. فمرَّ في طريقه بمجموعة من الصبية يلعبون الكرة، ويتنادَوْنَ قائلين: «العبْ يا نادي.. هيا يا كامي.. أسرعْ يا جابي..» وهكذا.

تعجَّبَ لُقمان من هذه الأسماء، وظلَّ يفكرُ في شأنها حتى وصل إلى بستان السيد عبدالسلام.

كان المضيفُ قد دعا رجال الواحة كلَّهم للترحيب بصديقه. فظلَّ الناس يتوافدون لزيارة الحكيم حتى تقدمَ الليل، فانصرفوا جميعًا إلا عددًا قليلاً من خلصاء السيد عبدالسلام الذين اجتمعوا خصيصًا ليبحثوا معه ما آل إليه حالهم.

بدأ لُقمان الحديث قائلاً: «لاحظتُ أيها السادة أن بعض عاداتكم قد تغيرت، فلم يعدْ أبناؤكم يقومون على خدمتكم وخدمة ضيوفكم كما اعتدتم أن تفعلوا من قبل».

أطرقَ الحاضرون، وقال السيد عبدالسلام معتذرًا: «نعم أيها الحكيم، فالتطور الذي أصابَ مجتمعنا قد غَيرَّ كثيرًا من عاداتنا، فلم يعدْ أبناؤنا يشاركوننا مجالسنا، وبالتالي لا يقومون على خدمتنا».

خَيَّمَ الصمت على المجلس، حتى قطعَه أحدُ الحاضرين قائلاً: «هذا ما أردنا أن نحدثَك عنه، ونستشيرَك فيه».

فقالَ رجل آخر: «لقد بدأ هذا الأمر منذ سنوات عديدة، عندما أصبحت واحة الحنظل، المجاورة لنا، ملتقى للتجارة والمواصلات، فزادت ثروة أهلها».

قال ثالث: «فتحولوا إلى واحتنا، يشترون بساتيننا ويشاركوننا في تجارتنا.. وكلما كَثُرت أموالُهم زادَ تسلُّطُهُم علينا وتحكُّمُهُم فينا».

أكملَ السيد عبدالسلام الموضوع قائلاً: «أما مصيبتنا الحقة ففي أبنائنا الذين لا يعترضون على تحكمهم في مصائرنا، بل يعتبرون بطشهم جرأةً وإقدامًا يستحقان الإعجاب، فيقلدونهم معتقدين أنهم بذلك يكونون أندادًا لهم. لكنهم لا يتشبهون بهم إلا في المأكل والملبس، والظلم والعدوان.. ففقدنا كل أمل في التخلص من سيطرةِ واحة الحنظل على واحتنا».

قال الحكيم بأسى «لاحظتُ أنكم قد فقدتُم أسماءكم أيضًا.. فما هذه الأسماء الغريبة التي ينادي بها الصبية بعضهم بعضًا؟!».

قال أحد الحاضرين: إنها أسماء سهلة، اخترناها لأبنائنا حتى يتمكنَ أهل واحة الحنظل والغرباء الزائرون من نطقها».

قال الحكيم مستنكرًا: «وما العيب في الأسماء الصعبة التى لا يتمكنُ الغرباءُ من نطقها؟.. إنها أسماؤكم.. فيها شخصياتكم.. كيف تهجرونها؟!.. كيف تستبدلونها بأسماء لا تعني لكم شيئًا لمجرد أن يتمكن الآخرون من نطقها؟!».

أطرق الجميع مرة أخرى.. حتى قال السيد عبدالسلام: «ليتك تدُلنا على مخرج مما نحن فيه من ضعفٍ وهوان».

قال الحكيم بعد فترة من التفكير: «أرَى أن تعودوا إلى أسمائكم وأسماء آبائكم.. غَيِّروا أسماء أطفالِكم الصغار، سموهم سعد وزيد وخالد وطارق، سموهم جعفر وعبدالرحمن والقعقاع. إن ذلك سيغيرُ أحوالكم.. ربما بعد عشر سنوات، وربما بعد ذلك.. لكنها ستتغيرُ بالتأكيد».

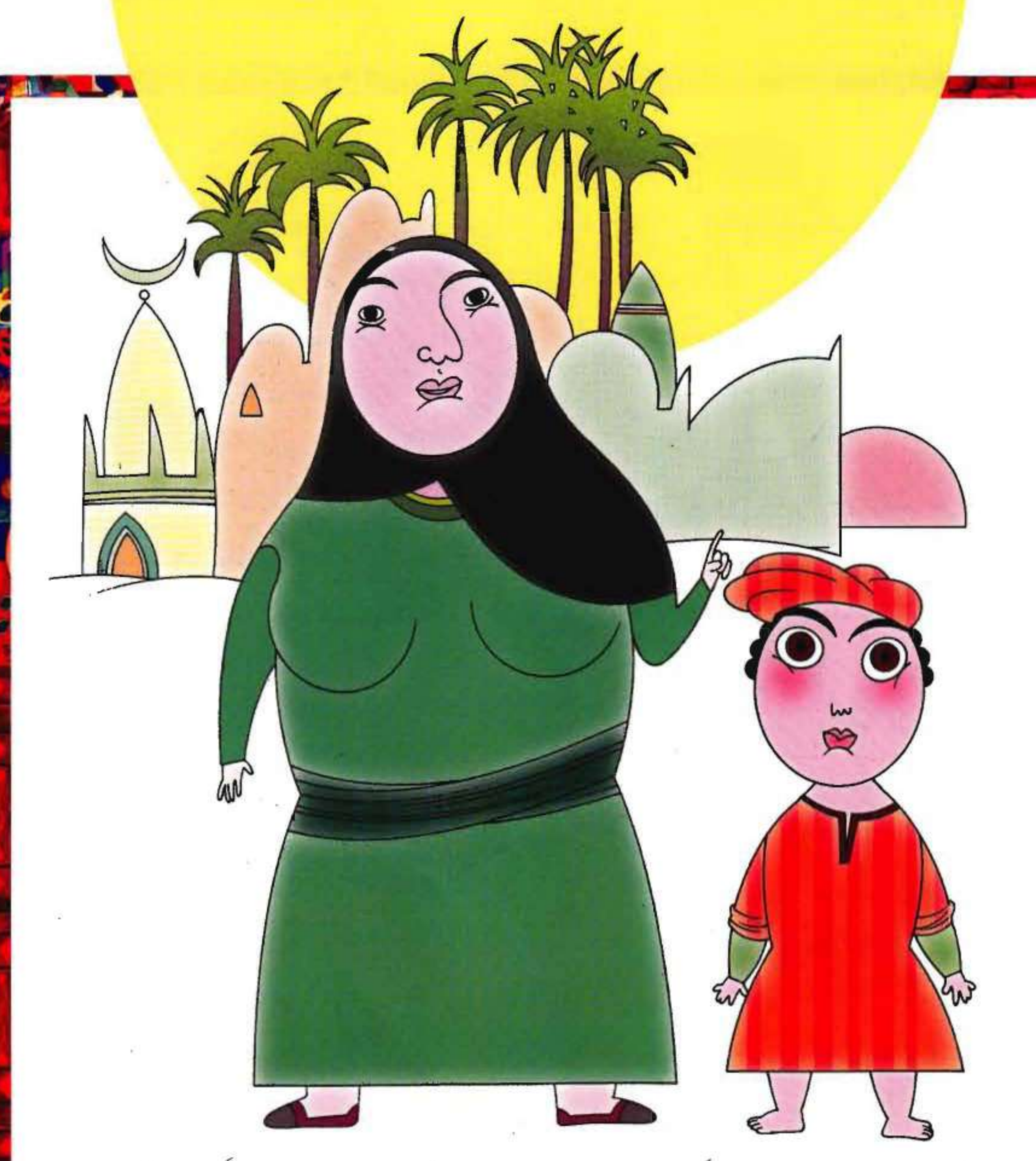
تعجبَ القوم وأخذوا يسألونَه: «ما دخل أسماء الناس بما يعانونه من ضعف وما ينعمون به من قوة؟!.. كيف ننتظرُ عشر سنوات؟!.. إننا نريد حلاً عاجلاً».

لكن الحكيم ظلّ يرددُ بإصرار: «ابدءوا بأسماء أبنائكم.. لا أجد لكم حلاً غير ذلك».

في صباح اليوم التالي، غادر لُقمان بستانَ صاحبه، فوجدَ امرأةً جالسةً بالقرب من الباب متلفحةً بشالٍ أسودَ بالٍ، تحتضنُ صبيًا في حوالي الخامسة من عمره.

هبَّت المرأة واقفةً، واستأذَنت الحكيم أن تصحبَه وهو في طريقه إلى الساحة.. فسارَت، وسارَ ابنها إلى جوارها ممسكًا بشالها.

قالت المرأة: «اسمي حَبَّابة،
أصنعُ الحصرَ والسجادَ،
وهذا ابني حَبَّاب».



مدّ الحكيم يده داعيًا حَبًّابا لمصافحته، فانكمشَ الصبي، واختبأَ وراء أمه وغطى وجهه بِطَرَفِ شالها. فقالت المرأة: «إنه خجولٌ يخشى الناس.. فهو مسالمٌ مثلي. لقد كان أبوه أمهر صانع للسجاد في وادي البان كله. لكنه تُوُفِّي عندما كان حَبَّابٌ في الثّانية من عمره».

قال الحكيم: «رَحِمَهُ اللّه، وعوضَكِ خيرًا بابنِه».

قالت حبَّابة بتردد: «هذا ما جئتُكَ من أجله، فقد سمعتُك تنصحُ أهل الواحة بتغييرِ أسماء أبنائهم حتى تتبدلَ أحوالُهم إلى الأفضلِ.. وأنا أكرهُ أن يعيش ابني ضعيفًا مهضومَ الحق.. فماذا أسميه؟».

قال الحكيم: «أطلقي عليه اسمًا تحبينَهُ وتفخرين به.. اسم شخص تتمنَّين أن يصبحَ ابنُكِ صورةً له.. اسمًا أصيلاً من أسماء قومك».
شكرت حبابة الحكيم وحملت ابنها وانصرفت.



كانت القافلة قد اقتربَت من واحة السدر عندما انتهى الحكيم من سرد قصته. وانشغَل بعد ذلك بمتابعة الطريق، حتى توقفت القافلة في ساحة الواحة، فتساءل عِمران وهو يهم بالهبوط من فوق ظهر الناقة: «تُرى.. ما الاسم الذي اختارَتْهُ الخالةُ حبَّابة لابنها؟».

وقف لقمان وعمران يتأملان الساحة، فوجداها كما رآها الحكيم منذ عشر سنوات، الزحام نفسه والضجيج نفسه فقال عِمران: «يبدو أن أحوالهم لم تتغيرْ».

اتخذا طريقهما نحو النبع.. فمرا ببستان صغير يبدو أخضرَ وأنضرَ مما حوله من البساتين، يحيطُ به جدار منخفض. فقال لُقمان: «هذا بستان حديث، فمن صاحبه يا تُرى؟».

ردت فتاة صغيرة كانت تجلسُ في ظل الجدار ممسكةً بيد أختها: «إنه بستان عنترة، زرعَه بنفسه.. دون مساعدة من أحد».

قال الحكيم: «لا أذكرُ في الواحة رجلاً اسمه عنترة».

ردت الفتاة بفخر: «إنه ابن جارتنا، الخالة حبَّابة. وهو فتى في عمر أخي، لكنه أقوى وأشجع من الرجال».

أقبلت حبَّابة من داخل البستان مرحبةً بالحكيم وعِمران، وبسطت لهما حصيرًا، قالت إن ابنها قد صنعه بنفسه، وقدمت لهما ماءً باردًا وصحنًا من ثمار المشمش. ثم جلست مرفوعة الرأس وقالت: «لقد غيرتُ اسم ابني، أسميتُهُ عنترة.. وكلما سألَني عن هذا الاسم الغريب، رويتُ له سيرةَ عنترة بن شداد، وحكيتُ له كيف كان أبيًا رفض الظلم والهوان.. كيف كان كريم النفس، عفا



عن قومه الذين سلبوه حريته وحرموه من الانتساب لأبيه فحاربَ معهم وردَّ عنهم الغزاة والمعتدين. كنت أقصُّ عليه قصص سخائه وشهامته. ثم أختتم حكايتي بأنني أتمنى أن يصبحَ مثله، في عزةِ نفسه وشجاعتِه وإقدامه».

بدا على وجه الحكيم البشرُ والسعادةُ.. فتابعَت حبَّابةُ: «ليتك تراه يا عمي لُقمان.. لقد كان لهذه الحكايات أثرٌ عظيمٌ على أخلاق ابني وسلوكه.. فقد أصبحَ لا يحتملُ الظلمَ والإهانةَ لنفسِه أو لغيرِه.. فقد رفضَ أن نبيعَ الحُصُرَ التي

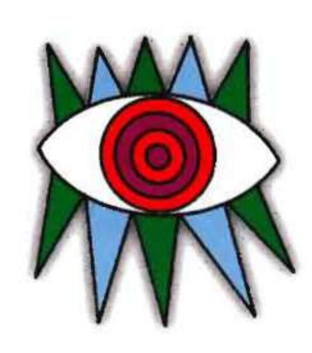
نصنعُها بالثمنِ البخسِ الذي فرضَه علينا تجارُ واحة الحنظل.. وعندما أراد أن يزرعَ هذا البستان الذي وَرِثَهُ عن أبيه، لم يسمحْ له أهل الواحة بشقِّ قنواتِ الري من بساتينهم إلى بستانه.. فكان يحملُ دلاءَ الماءِ من النبع إلى البستان عدة مراتٍ كل يوم، ويعملُ طول النهار وحده.. ثم يبيتُ فيه ليحرسَه في الليل.. بالرغم من سنواتِ عمرِه التي لم تتجاوز السادسةَ عشرةَ».

أسندت حبَّابة ظهرها إلى الجدار وقالت بثقة: «أما الآن فقد تحسنت أحوالُنا كثيرًا.. أصبحَ أهل الواحة يحترموننا ويقدروننا. حتى إنهم مدوا قنوات الري إلى أرضنا دون أن نطلبَ منهم. وساعدونا في إقامة هذا الجدار. وأنا الآن أبيعُ حُصُري بالسعر الذي أحددُهُ، ويعرفُني أهل الوادي كله باسم أم عنترة».

انصرفَ الحكيم وتلميذه بعد أن ودعا حبابة.. وخارج البستان، كانت الصبِّيَّة الصغيرة ما زالت تجلس مع أختها في ظل الجدار. فسألها الحكيم عن اسمها فقالت: «اسمي فاطمة.. وهذه أختي نُسَيْبَة».

وفي الجهة المقابلة للبستان، كان هناك فريق من الصبية يلعبون الكرة ويتصايحون: «هيا يا علي.. أقبل يا مُثَنَّى.. ارم يا صلَاح الدين.. انتبه يا مالك..».

ابتسَم الحكيم راضيًا، وقال لعِمران: «يبدو أن أحوالهم قد تغيرت أكثر مما كنا نتصورُ».. ثم تابعا طريقهما إلى بستان السيد عبدالسلام.




قلعةُ
الدُّمَى

المدفع من البرج، فأدى الفُرسان التحيةَ لأميرهم. ثم عادوا إلى القلعة يتقدمُهم حاملُ الراية كما خرجوا منها.

اختفى الفُرسان داخل القلعة، وأُغْلِقَت البوابةُ، وسادَ السكون.. وتحركَت القافلةُ ببطءٍ وقد سَيْطَرَ العجبُ والدهشة على ركابها.

توقفَت القافلةُ مرة أخرى لقضاءِ الليل في مركزِ حراسةِ الوادي.. وتَجمَّعَ الركابُ في الساحة حول الحارس العجوز الذي يقيمُ في ذلك المكان منذ زمنٍ بعيد.. وراحوا يسألونَه عن المدينة المهجورةِ وقلعتِها العجيبة.

حركَ الحارس النار بعودٍ في يده، ثم ملأ أكوابَ الشاي، فقامَ عمرانُ وبعضُ الشباب يحملونها إلى الركابِ الذين جلسوا مترقبين.. يسمعون القصةَ من أولها..

قالَ الحارس: «كانت تلك القلعةُ فيما مضى تُعْرَفُ باسم قلعة الصوَّان، وكانت المدينة المهجورة يُطلَقُ عليها اسم مدينة الصوّان، حتى حاكمها كان يُقالُ له أمير الصوّان.

وقد اعتادَ أمراء الصوّان أن يختاروا وزراءهم من عائلةٍ اشْتُهِرَ رجالُها بالعلم والحكمة، فسارت أمورُ القلعةِ والمدينةِ على خيرِ حالٍ لأن أمراءها كانوا يستشيرون وزراءهم في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ولا يستبدون برأيهم أبدًا.

بعد وفاة الأمير مَنّاع، تولى الحكم ابنه الأميرُ صَفوان، الذي كان ضَيِّقَ الصدرِ قاسي القلبِ ومغلقَ العقلِ.. فبدأ عهدَه بإعفاءِ الأستاذ أبي الأسْوَد - وزير أبيه - من منصبه، وعَينَّ بَدلًا منه وزيرًا آخر من نفس العائلة اسمه أبو سِعْدَة..



فرحل الأستاذ أبو الأسود شمالاً إلى «وادي البان» واشترى بستانًا كبيرًا؛ عاش فيه يزرع أشجار النخيل والزيتون، ويكتب تاريخ مدينة الصوّان وقلعتها.

أما الوزير أبو سعدة فقد قاسى عامين كاملين من رعونة الأمير صفوان وتهوره، حاولَ فيهما أن ينصحَه أو يرشدَه بلا فائدة، فقد كان الأمير مستبدًا برأيه لا يقبلُ أن يعارضَه أحدٌ، ولا يرجعُ عن قولٍ قاله أو فعلٍ فعله مهما تبين له خطؤه أو ضرره، ويعاقبُ من يبدي رأيًا مخالفًا لما يريده هو شخصيًا.. حتى يئسَ الوزيرُ وأعيته الحيل، فسافرَ إلى عالم شهيرٍ يعيشُ على الجبل الشرقي اسمه الحكيم لُقمان، ليستشيرَه كما اعتاد الوزراء من عائلته أن يفعلوا كلما صَعُبَت عليهم الأمور».

عندئذ، التفت عِمران إلى معلمه مندهشًا، لكن الحكيم أشار إليه أن يبقى صامتًا ويستمعَ بهدوءٍ.. وتابعَ الحارس قصته قائلاً:

«سافرَ الوزيرُ أبو سعدة إلى الحكيم لُقمان، وحكى له ما يعانيه هو وأهل القلعة والمدينة من تسلّط الأمير وَتَعنُّته، فقال له الحكيم: «يبدو أن أميَركم هذا لا يريدُ وزيرًا يساعدُهُ في الحكم والإدارة، وإنما يريدُ دميةً مثل الدُّمَى التي يصنعُها المعلم سرحان، دميةً توافقُهُ على كل ما يقولُه ويفعلُه».

قال الوزير: «نعم أيها الحكيم.. هذا ما يريدُه الأميرُ فعلاً».

فنصحه الحكيم أن يذهب إلى المُعَلِّم سَرحان، فهو الوحيد الذي يملك حلًا لهذه المشكلة»».

سكتَ الحارس قليلاً.. وأفرغ مزيدًا من الشاي في أكواب المجتمعين حوله.. ثم تابعَ قصته وهو يشيرُ في اتجاه الشرق:

«لا بد أنكم تعرفون المُعلِّم سرحان صانع الدُّمَى الشهير الذي يعيشُ في هذا الوادي. فهو يصنعُ كلَّ أنواع الدُّمَى.. الصغيرة والكبيرة، الساكنة والمتحركة، الصامتة والناطقة. وقد ذاعَ صيتُهُ في طولِ البلادِ وعرضِها.. ويأتي إليه الناسُ من كل مكان ليشاهدوا دُماهُ العجيبة.

غادَرَ الوزيرُ بيت الحكيم وهو بائسٌ يائسٌ، لا يتصوَّر كيف يجد حلًا لمشكلته

عند المعلم سرحان صانع الدُّمَى.. لكنه ذهب لزيارته على كل حال.. عملًا بنصيحة الحكيم.

جلسَ أبو سعدة مع المعلم سرحان في بيته يراقبُ الدُّمَى وهي تروحُ وتجيءُ في قاعاتِ البيتِ وساحاتِه؛ ترحبُ بالضيوفِ ويحيي بعضُها بعضًا.. ثم خطرَ ببالِه خاطرٌ عجيبٌ، فقالَ لنفسه: «أظنُّ أن هذا ما قصدَه الحكيم لقُمان».

شرحَ الوزيرُ مشكلتَه للمُعَلِّمِ سرحان، وطلبَ منه أن يصنعَ له دُمْيَةً تشبهه تمامَ الشبه، موضحًا مواصفاتها الدقيقة التي يريدُها.





بعد أسبوع، عاد الوزير إلى المعلم سرحان، فحملَ الدُّمية الجديدة علىَ فرسه حتى أسوار القلعة، وتركَها تدخلُ وحدها من البوابةِ الحديديةِ كأنها الوزيرُ الحقيقيُّ.. ثم رَحَلَ وحدَه إلى بستانِ عمه الأستاذ أبي الأسود في وادي البان.

عاشت الدُّميةُ الوزيرُ في القلعةِ دون أن يَعْرِفَ حقيقتَها أحد، فقد كانت تُشْبِهُ الوزيرَ أبا سعْدة، وتتكلمُ وتتحركُ وتأكلُ وتشربُ مثله تمامًا.. حتى الأمير نفسه تصوَّرَ أنها وزيرُه، وسُرَّ سرورًا عظيمًا من التطور الذي طرأ على شخصيته.

أصبحَ الوزير الدُّمية يُقْبِلُ كلَّ صباحٍ على الأميرِ بوجهٍ باسم، وينحني انحناءةً عظيمةً قائلًا: «صباحُ الخير يا مولاي».

ثم لا يقومُ ولا يقعدُ بعد ذلك إلا بإذنِ الأميرِ، ويقضي يومَهُ كلَّهُ مبتسمًا، لا يبدي رأيًا ولا يعترضُ على قرارٍ.. ولا يقول إلا: «نعم يا سيدي» أو «بالتأكيد يا مولاي» أو «طبعًا طبعًا أيها الأمير».

وهكذا تخلصَ الأمير صفوان من معارضةِ وزيرهِ، وتخلَّصَ الوزيرُ من الحياةِ بالقربِ من الأميرِ.. لكنَّ عبءَ الاعتراضِ على سوءِ إدارةِ الأميرِ وقَع على عاتقِ مساعِدَيْ أبي سعدة.



لم يحتملْ مساعدا الوزيرِ ما وصلَ إليه حالُ القلعةِ والمدينةِ من استبدادِ الأميرِ وتأييدِ أبي سعدةَ له. فقررا أن يسافرَ أحدُهُما لزيارةِ الأستاذِ أبي الأسود، ليخبرَه بما أصابَ ابنَ أخيه، ويسألَه النصيحةَ.

ذَهِلَ المساعدُ ذهولًا شديدًا عندما رأى الوزيرَ أبا سعدة يعيشُ في بستانِ عمهِ في هدوءٍ وسلامٍ. وكانت دهشتُهُ أشدَّ عندما عَرَفَ منه قصةَ الوزيرِ الدُّمية.. فسارعَ إلى القلعةِ ليرويَ لزميلِهِ ما رآه وما سَمِعَهُ.

اتَّفَقَ المساعدان على أن يقلدا الوزيرَ أبا سعدة، فوضعا مكانَهما دُمْيَتَيْنِ شبيهتَيْنِ بهما، من صناعةِ المُعَلِّمِ سرحان.. ثم فرَّا إلى بستانِ أبي الأسود.

سادَ القلعةَ هدوءٌ غريبٌ بعدَ أن أصبحَ الوزيرُ ومساعداه لا يفعلون شيئًا إلا الانحناءَ والابتسامَ والموافقة.. ثم تسربَ الخبرُ إلى قائدِ الحرسِ. فرحَلَ هو الآخر من القلعةِ إلى بستانِ أبي الأسود، بعد أن تركَ مكانَه دُميةً تركبُ الخيلَ وتؤدي التحيةَ بوجهٍ صارمٍ، وتقولُ: «أمْرُكَ يا سيدي».. ومع ذلك، استمرَّ الأميرُ صفوان في غفلتِه، ولم يلاحظْ أن قائدَ حرسه وثلاثةً من معاونيه قد تحولوا إلى دُمَى.

مع الوقتِ، ذاعَ سرُّ دُمَى المُعَلِّمِ سرحان بين حاشيةِ الأميرِ وحرسِهِ وعمالِه، فراحوا يتسللون من القلعةِ الواحدَ وراءَ الآخر، تاركين مكانَهم دُمَى تقومُ

بعملهم وتنحني، مبتسمةً أو عابسةً، حسب طلب الأمير.

وكلما هجَرَ أحدُهُم القلعةَ، التَحَقَ ببستان الأستاذ أبي الأسود. فتوسعَت فيه الزراعةُ، وَكثُرت البيوتُ، وحفروا آبارًا جديدةً.. حتى أصبحَ البستانُ واحةً مستقلةً تحيطُ بها أشجارُ الزيتونِ وتشتهرُ بزراعةِ الأعشابِ الطبيةِ، اسمها واحة أبي الأسود.. لا بد أنكم قد مررتم بها في طريقِكم إلى هنا، فهي تقعُ في أقصى جنوب وادي البان».

تقدمَ الليلُ واشتدَّ البردُ، فاقتربَ الجالسون من النارِ، وقد تدثروا بأرديتِهم وأغطيتِهم، في حين راحَ الحارس يضعُ أعوادَ الحطبِ في النارِ ليزيدَها اشتعالاً... ثم تابعَ روايتَه، فقال:

«عاشَ الأميرُ صفوان يأمرُ وينهى فيمن حولَه دون أن يناقشَهُ أحدٌ.. وانتشرَ الخبرُ بين أهلِ المدينةِ أن الأميرَ يحيطُ نفسَهُ بمجموعةٍ من الدُّمى تقومُ بكل شؤونِ القلعةِ؛ فأطلقوا عليه اسم أمير الدُّمى.. وأصبحت القلعةُ تُعْرَفُ باسم قلعة الدُّمى.

وبمرورِ الأيام، ضاقَ الناسُ من تجاهلِ الأمير وإهماله لمصالحهم؛ فقد اكتفى بالتحكم في دُماهُ، وأصبحَ لا يغادرُ القلعةَ أبدًا، ولا يبدي أيَّ اهتمامٍ بأحوالِ المدينةِ.. حتى إنه كان لا يرسلُ لهم مأمورًا ولا قاضيًا. فهجروا المدينةَ ورحلوا إلى الوادي. ولم يبق هناك إلا أطلالَ البيوتِ، وقلعةَ الدُّمى وأميرَها الذي ما زال يعيشُ فيها وحدَه دون أن يلاحظَ اختفاءَ الناسِ من حولِهِ».

انتهى الحارسُ من روايته، وخمدت النار، فدخل المسافرون إلى حجراتهم لينامو.

في فجرِ اليوم التالي، وقفَ الحارسُ العجوزُ يودعُ الركابَ وقد تأهبوا للرحيلِ.. ثم التفتَ إلى لُقمان وقالَ بصوتٍ هامسٍ: «في حفظ اللّه أيها الحكيم».

نظر عِمران إلى معلمِه متعجبًا مستفهمًا. فابتسمَ الحكيمُ وقال: «لقد كان هذا الحارسُ مرافقًا للوزير أبي سعدة عندما قامَ بزيارتي في الجبلِ.. كما كان دليلَ أهلِ القلعةِ كُلِّهِم إلى المعلمِ سرحان صانعِ الدُّمى».


الهدية



الهدية

غادرت المركبُ شاطئ النهر وأبحرت نحو الشمال، ومَر النهارُ، وأقبلَ المساءُ.. وجلسَ الحكيم لُقمان مع تلميذه عِمران وَرُجَلينْ آخَرَيْنِ من الركابِ يتحدثون.

كان أحدُ الرَّجُلَيْنْ تاجرَ غلالٍ، مسافرًا لشراءِ محصول القمح من البلدانِ المجاورة.. تَعَرَّفَ عليه الحكيم في البلدة التي ركبا منها المركب، عندما نَزَلَ الحكيم إلى سوقِها ليشتري عباءةً صوفيةً جديدةً. وكان الآخرُ شابًا ضعيفًا، يبدو عليه الفقرُ والإعياء، كان يجلسُ شاردًا لا يشتركُ في الحديث إلا نادرًا.

ظهَر القمرُ في السماء، فأخرجَ عِمران الطعامَ من خُرجِه ووضعَهُ أمامَ الجالسين، ودعا الحكيمُ ضَيْفَيْهِ ليأكلا معهما، فأكلوا جميعًا.. ثم تمددوا على سطح المركب وناموا.

ولما تقدم الليل، أرسى البحارةُ مَرْكَبَهُم على الشاطىء في انتظارِ الفجرِ.

بعد فترةٍ.. سَمِعَ الحكيمُ صوتَ أنينٍ، ورأى الشابَّ يَهذي ويرتجفُ كأنه يعاني من الحمَّى. فقامَ وأعدَّ له شرابًا ساخنًا سقاه إياه وَدثَّرَهُ بعباءتِه الجديدةِ، وظلَّ إلى جوارِه حتى زالَتْ عنه الحمى. فتغطى هو بردائِه القديم.. ونامَ.

في الفجرِ، استيقظَ الركابُ على صوتِ الأذانِ.. وَبحَثَ الحكيمُ عن الشاب المريض فلم يجدْهُ على ظهرِ المركبِ، ولم يجدْ عباءتَهُ الجديدةَ. وأخبرَهُ أحدُ البحارةِ أن الشابَّ قد غادرَ المركبَ في منتصفِ الليل.

هبَّ التاجرُ واقفًا وقال بحماسةٍ: «هيا بنا إلى الشاطئ لنلحق به.. فَنَقْبِضَ عليه ونستردَّ عباءتَك».

ردَّ لُقمان بهدوء: «لا داعي لذلك، فلا بُدَّ أنه محتاجٌ إلى تلك العباءةِ، وإلا ما كان أخذَها. وأنا لا أحتاجُ إليها حقيقةً.. فعندي ردائي القديم، وهو يكفيني».



بدا الضيقُ على التاجرِ، فعادَ إلى مكانه وهو يقولُ: «أمرُكَ عجيبٌ أيها السيدُ..لماذا تتهاونُ في حقِّكَ؟!.. ألا يَهُمُّكَ أن تُحقَّ الحقَّ وتعاقبَ المُسيءَ؟!».

ردَّ الحكيم مُهَوِّنًا: «يا أخي أنا لا أتهاونُ في حقي، وإنما سامحتُهُ.. والسماحُ غيرُ التهاونِ».

قال التاجرُ: «ربما اعتقدَ ذلك الشابُّ أنه انتصرَ عليك. فقد أحسنتَ إليه ثم سرقَكَ ولم تطاردْهُ.. فيتمادى في السرقةِ والضلال».

ردَّ الحكيمُ: «وربما أنَّبَهُ ضميرُهُ، وراجعَ نفسَهُ فتابَ إلى اللّٰه وامتنعَ عن السرقة».

ظلَّ التاجرُ يراجعُ الحكيمَ طولَ اليوم في موضوعِ سرقةِ العباءة.. ويتذمرُ من ردِّ الحكيمِ فينصرفُ مغمغمًا، ثم يعودُ ويراجِعُهُ من جديدٍ.. وأخيرًا قال له:

«الحقيقةُ أن ما حدثَ لك ذكرني بما حدثَ لي من أحدِ زبائني.. فأنا تاجرُ غلالٍ كما تعلمُ، وقد اعتاد أحد المزارعين الأُجَراء في بلدنا أن يشتري مني في كل عام ما يكفيه من الفولِ والذرةِ، ثم يدفعُ لي الثمنَ مقسطًا.. وكان لا يتأخرُ أبدًا عنِ المواعيدِ التي يُحَدِّدُهَا هو. وكنت أبيعُه بالتقسيطِ لأنه كان فقيرًا كثيرَ العيالِ.

ومنذ عامٍ ونصف، اشترى مني ما اعتادَ أن يشتريَه كل عام.. ومرت الشهورُ دون أن يسددَ ما عليه. وبحثتُ عنه فاكتشفْتُ أنه قد رحلَ عن قريَتِه هو وأهلُه، ولا يعلمُ أهلُ القريةِ عنه شيئًا.. ولم يعدْ إلى الآن، ولم يدفعْ لي قرشًا واحدًا. لقد مرَّ على ذلك أكثرُ من عامٍ.. ومازلتُ حانقًا عليه، فقد خدعني وسلبني مالي بعد أن وثقتُ به.. والآن ازدادَ حُنْقي عندما رأيتُكَ هادئًا غير مبالٍ بسرقةِ عباءتك».

حاوَل الحكيمُ أن يلتمسَ العذرَ للمزارعِ، فربما اضطرَّهُ أمرٌ طارئٌ إلى الرحيل دونَ أن يخبرَ التاجرَ، أو ربما سافرَ محاولاً الحصولَ على مالٍ يسددُ به دَيْنَهُ ولم يتمكنْ من العودةِ. لكن التاجرَ صمَّ أُذُنَيْه عن حديثِ لُقمانَ وراح يُرَددُ بغيظ: «إن عجبي منك يزدادُ أيها السيدُ.. كيف لا تغضبُ وقد سلبَك ذلك الشابُّ مالَكَ؟!.. كيف لا تحزنُ إذا فقدت شيئًا تَمْلكُهُ؟!».

رد لُقمان برقة: «يا أخي العزيز.. إنك لا تفقدُ الشيءَ إذا أهديتَهُ لصديقكَ بكاملِ رضاكَ.. ولقد أَهْدَيْتُ عباءتي لذلك الشاب.. لذلك لستُ حزينًا لفقدها، ولستُ غاضبًا لأنها لم تعد ملكي».

قال التاجرُ معترضًا: «ولكني لم أهب الفولَ والذرةَ لذلك المزارعِ بكاملِ رضاي».

قال الحكيمُ: «ارضَ الآن، فيزولَ غضبُك وتهدأ نفسُك. لا تقُلْ إنه خدعَك.. قلْ إنه قد قَبِلَ هديَّتَك».

هَز التاجرُ رأسَه متشككًا وسكتَ.

في المساء، رست المركبُ على الشاطئ. فودَّعَ التاجرُ رفيقَيْه ونزَلَ إلى البرِّ.. وفي الفجر، تابَعَ الحكيم وعِمران رحلَتَهما على المركب إلى حيث يلتقي النهرُ مع البحرِ.

مرت الأيام.. وحانَ موعدُ عودة لُقمانَ وتلميذِهِ إلى دارِهما. فركبا المركب

المتجهةَ جنوبًا.. فسارت بهما أيامًا، ترسو في الليلِ وتُبْحِرُ في النهارِ.. حتى وصلت ذات مساءٍ إلى بلدةِ تاجرِ الغلالِ.

كان تاجرُ الغلالِ يقفُ على شاطئ النهرِ في انتظارِ المركبِ، وما أن رأى الحكيمَ وتلميذَهُ حتى أقبلَ عليهما متهللَ الوجهِ وهو يقولُ: «إني أنتظركما على شاطئ النهرِ كل مساءٍ منذ أيام».

عانقَ التاجرُ صديقَيْهِ ودعاهما إلى بيته، حيث جلسوا في حديقتِهِ يتناولون طعام العَشاء ويتسامرون.

قال التاجرُ: «هل تذكرُ حديثَنا السابقَ عن الشابِّ الذي سرقَ عباءتَك وعن المزارعِ الذي أخذَ الفولَ والذرةَ ولم يسددْ ثمنَهما؟».

قال لُقمان: «أذكر ذلك طبعًا».

قال التاجرُ: «لقد كان حديثُكَ مُقْنعًا، لكن غضبي كان يمْنَعُني من التفكيرِ السليمِ..



فلما عدتُ إلى بلدي، رحتُ أُقَلِّبُ الأمرَ في نفسي وأقولُ إن المزارعَ قد ذهبَ بمالي ولن أستردَّهُ، فلماذا لا أَهَبُهُ له حتى أرتاحَ؟!.. ولكن غيظي كان يَمْنَعُني من تنفيذِ ما أفكرُ فيه».

ثم التفتَ التاجرُ إلى عمرانَ وقال: «إن الغيظَ والغضبَ يا بنَيَّ شعوران مؤذيان، يضران صاحبَهما أكثرَ مما يضرهُ فقدانُ الأشياء».

ثم أكمل موجهًا حديثَه إلى لُقمان: «ثم، ذات صباحٍ.. بعد صلاةِ الفجرِ، رحتُ أفكرُ في الأمرِ من جديد.. ووجدتُ في نفسي القدرةَ على العفو والسماح.. فقلتُ بصوتٍ مسموعٍ إن ما أَخَذَهُ المزارعُ من فولٍ وذرةٍ أصْبَحَ ملكًا له.. فقد وَهَبْتُهُ إياه.. ثم انصرفتُ إلى عملي وأنا أشعرُ بالراحةِ والسعادةِ كما لم أشعرْ منذ زمن بعيد.. فقد تخلصتُ من حملٍ ثقيلٍ كان يجثمُ على صدري منذ عامين تقريبًا».

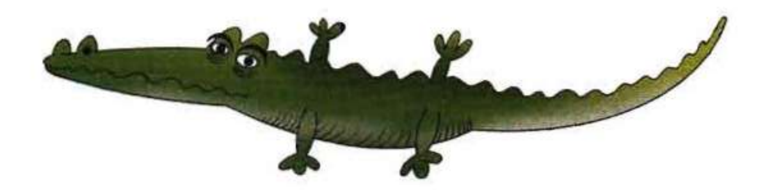
قال الحكيمُ: «الحمد للّه الذي أذهبَ عنكَ الغيظَ والغضبَ».

قال التاجُر مكملاً حديثَه: «أما ما حدثَ بعد ذلك فكانَ عجيبًا حقًا.. ففي أحد الأيام، كنتُ مارًا بسوقِ البلدةِ، فرأيتُ رجلاً يسرعُ نحوي وهو يناديني.. كان ذلك المزارعَ.. فَفَرِحْتُ برؤياه ورحبتُ به، ووقفتُ أسألُه عن أحوالِه وأحوالِ أهلِه، بينما راحَ هو يقاطِعُني ويشكُرُني على صبري وحسنِ خلقي.. ويعتذرُ عن تأخرِه عن سدادِ ثمنِ ما اشتراه مني، فقد اضطُرَّ للرحيلِ فجأةً بينما أنا غائبٌ عن البلدةِ. وقد مرت به ضائقةٌ ماليةٌ، فجمعَ بالكادِ ثُلُثَ ما عليه من دَيْن».

تنَهدَ التاجرُ بارتياحٍ وقال: «لقدَ حمدتُ اللّه كثيرًا. فقد كان الرجلُ أمينًا لمَ يقْصدْ خيانتي أو خداعي. وقد حَضَرَ خصيصًا ليسددَ ما جمعَهُ. وهو يأملُ أن يَجْمَعَ باقي المبلغِ قبلَ نهايةِ العام».

قال عمران: «لقد استرددتَ أخيرًا جزءًا من مالك..».

ردَّ التاجرُ باستنكار: «كلا بالطبع، لم أستردّ شيئًا.. فقد أَهْدَيْتُهُ الفولَ والذرةَ.. فكيف أقبلُ ثمنًا لِهديتي؟!!».




سلطان
العصر
والأوان

سلطان العصر والأوان

ذات صباحٍ، وصلَ ضيفٌ غريبٌ إلى الوادي حاملاً رسالةً إلى الحكيم من أمِّ همّام في جزيرةِ الكروم، تقولُ فيها: «ولدي همّام.. قتَلَهُ جنودُ السلطانِ، كما قتلوا أباه من قبلُ.. نحنُ في انتظارِك».

في المساء، سافر لُقمان وعِمران شمالاً إلى حيث يلتقي النهرُ بالبحرِ، وركبا سفينةً سافرت بهم ثلاثَ ليالٍ وثلاثةَ أيام.. حتى وصلت إلى ميناءٍ كبيرٍ.. انتشرت فيه لافتاتٌ كثيرةٌ مكتوبٌ عليها:

مرحبًا بكم في جزيرةِ العصرِ والأوان

قال عِمران لمعلمه: «ظننتُ أن اسمها جزيرةُ الكرومِ!». فَهَزَّ الحكيمُ رأسَه موافقًا دون أن يتكلمَ.

استأجرَ لُقمان وعِمران عربةً حَمَلَتْهما من ميناءِ العصر والأوانِ إلى عاصمةِ العصر والأوانِ.. وهناك توقفت أمام فندقِ العصرِ والأوانِ.. فَهَمَسَ عِمران متسائلاً: «ألا توجدُ أسماءٌ أخرى في هذه الجزيرة؟!». فهزَّ الحكيمُ رأسَه ثانيةً دون أن ينطقَ.. ففهمَ عِمران أن عليه أن يصمتَ هو الآخر.

باتا ليلتَهما في الفندقِ، وفي الصباحِ الباكرِ خرجا يتنزهان بين حقولِ الكروم على التلالِ الغربيةِ.. حتى ظَهَرَ أمامَهما قصرُ السلطان، بشرفاته الواسعةِ، وقبابِه العاليةِ، وقد أحاطَتْ به حدائقُهُ الغنّاءُ وبساتينُهُ المثمرةُ.. وانتشرَ حولَه الحرسُ والجنودُ يمنعون الناسَ من الاقترابِ.. فقال لُقمان لتلميذه: «هذا يا بني ما يسَمونَه سرايَ العصرِ والأوانِ».

دارَ لُقمان وعِمران حولَ المدينةِ باتجاهِ الشرقِ، ثم سارا في طريقٍ متعرجةٍ صاعديْن الجبلَ.. حتى لقيا غلاماً يرعى الأغنامَ، فعرّفَهُ الحكيمُ بنفسِه وبعِمرانَ، وسألَه أن يَدُلَّهُ على أولادِ همّام.



قال الغلامُ وقد تهلَّلَ وجهُهُ فَرَحاً: «أهلاً بك يا عمي لُقمانُ.. إننا في انتظارك منذ أيام.. أنا حميدٌ، أصغرُ أبناءِ همّام».. ثم قادَهم في دروبِ الجبلِ حتى وصلا إلى أحدِ الكهوف.. فدخل ينادي جدته.

رحبت أم همَّام بالحكيم وعمرانَ، ودعتهُما لتناولِ الغداء مع أحفادها، الذين أرسلت حميدًا كَيْ يناديهم من فجاجِ الجبلِ، ومن المدينةِ والمزارعِ المحيطة بها.

بعد الغداء، تحلّقَ الجميعُ حولَ الحكيم يحكون له ما أصابَهم..

قالت أمُّ همَام: «تولى هذا السلطانُ حكمَ الجزيرة منذ أربعين سنةً، وقد بدأ حكمَهُ بأن غيّر اسمَها إلى جزيرة العصرِ والأوان.. وأطلقَ على نفْسه لقبَ سلطانِ العصرِ والأوانِ».

«كان حاكمًا ظالمًا مستبدًا منذ أولِ يوم تولى فيه الحكمَ. ومع الأيام زاد ظلمُهُ واستبدادُهُ.. عاش سنينَ عديدة يَبْطِش بمن يعارضُه، دون أن يتعرضَ هو لأي مكروه.. فقد نجا من الوباءِ الذي أصابَ الجزيرةَ منذ عشرين سنةً. ولم يكن في العربةِ السلطانيةِ عندما انزلقت وهَوَتْ في الوادي. حتى أعداؤنا لم يهاجموا الجزيرةَ طولَ مدةِ حكمه.. فاعتقدَ الناس أنه قويٌّ لا يُقهَرُ، ولا يصيبُهُ ضعفٌ ولا مرضٌ.. فاستسلموا لظلمه وفقدوا القدرةَ على مقاومَتِه... ما عدا ابني همَّاما..

لذلك قتلوه.. كما قتلوا أباه من قبلُ».

سكتت أمُّ همّام.. فأكملَ الحديثَ حفيدُها الأكبرُ حمّاد، فقال: «خَشِيَ أبونا أن نَشُبَّ بين الناس، فنخضعَ كما خضعوا.. فأرسلَنا منذ طفولتنا مع جَدَّتنا للعيشِ على الجبلِ. وكذلك أرسلَ معنا أولادَ أعمامِنا كلَّهم.. ـ فنشأنا أحرارًا مستقلين، لا نقبلُ الضيْمَ. ومن يبلغ منا أَشُدَّهُ كان والدي يطلبُ منه العودةَ للعملِ بين الناسِ، في العاصمة أو القرى المحيطةِ بها.. وكان الناسُ يسموننا بني همّام».

تابعت أمُّ همّام قولَها: «كان ولدي همّامٌ يعملُ على بثِّ الجرأةِ والشجاعةِ في نفوسِ أهلِ الجزيرةِ. فلما قَتَلَهُ جنودُ السلطانِ.. كتبتُ إليك لعلك تساعدُنا في إتمام ما بدأهُ».

ظل الحكيمُ صامتًا يفكرُ حتى أقبلَ المساءُ. فأعدَّ لنفسه فراشًا بين الصخورِ.. ونام. أما عمران، فأمضى الليلَ مع بني همّامٍ، يحدثُهم ويستمعُ منهم، وقد امتلأ حماسةً للعملِ معهم.

في الصباحِ، بعد صلاةِ الفجرِ، جمَع الحكيمُ بني همّام وقال لهم: «يَظُنُّ أهلُ الجزيرةِ أنه لا داعيَ لمقاومةِ السلطانِ لأنه لا يمكن التغلُّبُ عليه أو التخلصُ منه.. إنهم يحسَبونَه ذا قوة خارقة لا تُغلبُ.. ولن يزول هذا الشعور من نفوسهم إلا إذا رأوْه ضعيفًا خائفًا.

بعد الإفطار، هبط لُقمان وعِمران إلى العاصمةِ بصحبةِ حميدٍ، ليتعرفوا على أهلِها ويتجولوا في أسواقِها.. فلما انتصفَ النهارُ، دوَّت دقاتُ الطبولِ، وانتشرَ الحرسُ في الطرقات يعلنون قدومَ الموكبِ السلطاني.. فتركَ الناسُ أعمالَهم على عجلٍ، واندفعوا يختبئون في المنازلِ والدكاكين.. فَجَذَبَ حميدٌ عِمران من ذراعِه ودخلَ معه أحدَ البيوت.

في لحظات، كانت المدينةُ قد خَلَتْ من أهلِها.. فمرَّ الموكبُ السلطانيُّ في الطرقاتِ المقفرةِ، محاطًا بصَفَّينِ من الفُرسانِ، وسار خلفَه حارسان يحملان خُرجًا ثقيلاً، يغترفان منه نقودًا ذهبيةً، يقذفان بها على جانبي الطريقِ قائلين:

«هذه هَدِيَّةُ سلطانِ العصرِ والأوانِ إلى شعبِهِ الوفيِّ».. لكن أحدًا لم يخرجْ من مخبَئِه. ولم يكن في الطرقات كلِّها إلا الحكيمُ لُقمان، الذي وقفَ مكانَه يراقبُ الموكبَ.

اقتربت العربةُ السلطانيةُ من الحكيم، فتوقفت، وصاحَ قائدُها: «تقدمْ أيها الغريبُ، وأجب السلطانَ.. من أنتَ؟ ماذا تفعلُ هنا؟».

اقتربَ الحكيمُ من العربةِ، وقالَ موجهًا كلامَه للسلطانِ: «اسمي لُقمان، كنتُ أتجولُ في الأسواقِ».

قال القائدُ: «ألم ترَ الموكبَ قادمًا؟.. لماذا لم تختبئ في أحدِ البيوتِ؟».

ردَّ الحكيُم: «لم يكن هناك ما أختبئُ منْهُ».

أشارَ السلطانُ لقائدِ حرسه، فَأَهْوَى بسوطِه على رأسِ الحكيمِ، فسقطَتْ عمامتُهُ، وتدفَّقَ الدمُ من وجهِه.

حاولَ عِمران الخروجَ من البيتِ لنجدةِ أستاذه. لكن حميدًا ومَن حوله أمسكوا به، ومنعوه من الحركةِ.. أما الحكيمُ، فلم ينطقْ بكلمةٍ.. وإنما تفرَّسَ بهدوءٍ في وجهِ السلطانِ، ثم مسحَ بيدِه الدمَ عن وجهِه، واستدارَ، وَمَشَى في طريقِه.

استشاطَ السلطانُ غضبًا. فأمرَ حرسَهُ، فقبضوا على الحكيم وأوثقوه في العربةِ السلطانيةِ.. فسارَتْ، وسارَ الحكيمُ خلفَها صامدًا رافعًا رأسَهُ باستعلاءٍ.. كأنَّه هو صاحبُ الموكبِ!

غادرَ الموكبُ العاصمةَ، واتجهَ غربًا إلى سراي العصرِ والأوانِ.. فخرَجَ الناسُ من البيوتِ يجمعون النقودَ الذهبيةَ، كأن شيئًا لم يكن، وكأن ما أصابَ الحكيمَ شأنٌ لا يعنيهم.

أما عِمران، فخرجَ يَتَلفَّتُ حولَه، ويمسكُ بالناسِ صارخًا: «ما لكم لا تدافعون عن ضيوفِكم؟!.. ما لكم لا تدافعون عن كرامتِكم؟!»..

لكنهم تجاهلوه، كأنهم لَا يَرَوْنَه ولا يَسْمَعُونَه.

رجع عِمران مع حميدٍ إلى الجبلِ حزينًا مثقلَ القلبِ.. وأمضى الليلَ مهمومًا يفكِّرُ. فلما طَلَعَ الصباحُ، أسرعَ إلى أمِّ همّام يقولُ لهَا: «لقد فكرتُ يا أمي في خطةٍ نُنْقِذُ بها الحكيمَ، ونُنَفِّذُ بها وصيتَه في الوقتِ نفسه».



جمعت الجدةُ
أحفادَها
وقالت لهم:
«لقد أعدَّ عِمران
خطةً تتيحُ للناس
أن يرَوْا السلطانَ ضعيفًا
خائفًا، ليعلموا أنه يخافُهم كما
يخافونه.. فاستمعوا له وتشاوروا معه».

في ذلك المساء، بعد إعدادِ الخطة، انطلقَ بنو همّام: رجالاً ونساءً: هابطين الجبلَ، فاتجهَ بَعْضُهُم إلى العاصمةِ والمزارعِ المجاورةِ لها، واتجه آخرون إلى قصرِ السلطانِ للعملِ به.

★ ★ ★

في صباحِ اليوم التالي. فوجئ السلطانُ برسالةٍ مثبتةٍ بالقربِ من فِراشِه مكتوبٌ عليها: «سوف ينقضي مجدُك وينهارُ سلطانك، إذا لم تطلقْ سراحَ الحكيمِ قبل ظهورِ هلالِ الشهرِ الجديدِ»!

هاجَ السلطانُ وماجَ، وصاحَ متسائلاً: كيف وصلت هذه الرسالةُ إلى جناحِه الخاص؟ ثم أمرَ بإحضارِ الحكيم؛ مكبَّلاً في أغلالِه؛ إلى قاعة العرشِ، وسألَه: «أتَزْعُمُ أنك حكيمٌ؟».

رد لُقمان: «أنا لا أزْعُمُ شيئًا.. وإنما هو لقبٌ أطلقَه عليّ الناسُ..



فأعاده السلطانُ
إلى سجنه.. وتناسى
أمرَهُ وأمرَ التهديدِ
تمامًا. لكنه في اليوم
التالي، وجدَ رسالةً أخرى
بها نفسُ الكلمات..
فأمرَ بتفتيش كلِّ من في
القصرِ، وكل الداخلين إليه
والخارجين منه.. لكن ذلك
لم يمنعْ وصولَ رسالةِ تهديدٍ
ثالثة؛ وجدها السلطانُ مثبتَةً
في المكانِ نفسه، بالقربِ من
فراشِه.. فاستدعى الحكيمَ مرةً
أخرى وقال له: «إذا لم تتوقفْ
هذه الرسائلُ، سوف آمُرُ بقتلِكَ..
وعندئذٍ لن تستطيعَ أن تحمي
نفسَكَ من الموتِ».

رد الحكيمُ: «لا يمكنُني
أن أحميَ نفسي من الموتِ،
كما لا يمكنُكَ أنتَ أن تحمي نفسَكَ من الموتِ».

اقْشَعَرَّ بدنُ السلطانِ، لكنه دارى خوفَه، وأرجعَ الحكيمَ إلى سِجنِه.. لكنَّ ذلك لم يُرْجع الطمأنينةَ إلى قلبِه. فجافاه النومُ. وسيطرت عليه الهواجسُ، وأصبحَ يرتابُ فيمن حولَه.. حتى حرسِه الخاص.

في تلك الأيام، كان بنو همّام ومعهم عِمران، يجوبون الجزيرةَ، وينشرون الشائعات أن السلطانَ غاضبٌ على شعبِهِ لاستضافتِهِ الحكيمَ لُقمان..

ثم يقترحون على الناسِ الاشتراكَ في مسيرةٍ إلى سراي العصرِ والأوانِ، حاملين الهدايا.. يُثْبِتون بها طاعتَهم التامةَ وخضوعَهم للسلطانِ..

وافقَ الناسُ على الفورِ، رغبةً منهم في إرضائه.. وحددوا لذلك الليلةَ الأخيرةَ من الشهرِ.

أصبحَ السلطانُ يتلقى كل يوم رسالةً تتهدَّدُهُ بانقضاءِ مجدِهِ وانهيارِ سلطانِهِ، فيزدادُ خوفُهُ وقلقُهُ يومًا بعد يوم، وأصبحَ يَضيقُ بقاعاتِ قصرِهِ المغلقةِ، فيقضي أوقاتَه في شرفاتِهِ الواسعةِ.. ولا يكفُّ عن حسابِ الأيامِ الباقيةِ على ظهورِ هلالِ الشهرِ الجديدِ.

... حتى كان صباحُ اليومِ الأخيرِ.. فوجدَ رسالةَ التهديدِ في مكانِها المعتادِ، مكتوبًا عليها: لقد حكمتَ على نفسك بانقضاءِ مجدِك وانهيارِ سلطانِك.

هبَّ السلطانُ مسرعًا إلى شرفةِ القصرِ الرئيسية، واستدعى الحكيمَ من محبسِهِ، وقال له: «أعلمُ يقينًا أنك دجالٌ لا يمكنُكَ تنفيذُ تهديدِك».

فقال الحكيمُ مبتسمًا: «إذا كنتُ دجالاً فعلاً، فما الذي يُزْعِجُكَ من أمري؟!».

زادَ اضطرابُ السلطانِ، فقد كان يريدُ قتلَ الحكيمِ، لكنه كان يخشاه في قرارةِ نفسه، ويخافُ إن قَتَلَهُ أن يكونَ ذلك سببًا في ضياع ملكه.. فأمضى النهارَ كلَّه جالسًا على كرسيِّهِ في الشرفةِ الشرقيةِ، وأبقى الحكيمَ - واقفًا أمامَه؛ مكبلاً في أغلالِهِ.

انقضى النهارُ، وغَرَبَت الشمسُ، فوقفَ السلطانُ يراقبُ الليلَ وهو يتقدَمُ من جهةِ العاصمةِ، ثم ينتشرُ بالتدريجِ حتى أظلمت الدنيا تمامًا. فتنهدَّ بارتياحٍ وهمَّ بالدخول.. لكن شيئًا غريبًا أعادَه إلى مكانه.

لقد جَذَبَتْ نَظَرَهُ نقاطٌ صغيرةٌ من الضوءِ الخافتِ تبدو من بعيدٍ. فعادَ يُدَقِّقُ النظرَ.. فرأى نقاطَ الضوءِ تتكاثرُ، وتنتشرُ في الوادي، صاعدةً التلالَ، مقتربةً من القصرِ.. فَتَسَمَّرَ مكانَه فزعًا مبهوتًا.. يراقبُها وهي تدنو منه.

كانت نقاطُ الضوءِ مشاعلَ صغيرةً يحملُها رجالٌ يمشون في المقدِّمَة. ومن خلفِهِم سارت جموعُ الناسِ في صمتٍ، حاملين هداياهم فوق رؤوسِهم، دليلَ

ولائهم للسلطانِ، راجين أن يزولَ عنهم غَضَبُهُ.

اقتربت الجموعُ من بوابات القصرِ، فلم يتحرك الحرسُ للتصدي لهم.. فقد انْتَقَل إليهم خوفُ السلطانِ وَعَجْزُه.. فتركوا النـاسَ يندفعون إلى حدائقِ سراي العصرِ والأوانِ.. ويتقدمون نحو الشرفةِ الرئيسيةِ.

تقدمَ حملةُ المشاعلِ، ومن ورائهم مقدِّمو الهدايا، حتى أحاطوا بالشرفة.. تقدموا صامتين مطأطئي رؤوسِهِم في استسلامٍ. إلا أن مجردَ تَجَمُّعِهِم، أدخلَ الرعبَ في قلبِ السلطانِ.. فانهارَ تمامًا.

انهارَ السلطانُ راكعًا على الأرضِ وهو يصرخُ في الجموعِ: «لا تقتربوا.. أرجوكم.. أرجوكم.. هاهو ذا الحكيمُ حرٌّ طليقٌ».

ثم هبَّ واقفًا، وأسرعَ متعثرًا في ثيابِه، ويحاول فكَّ وثَاقِ الحكيم.. فهرولَ حرسُهُ لمساعدته.. ثم أمسكَ برداءِ الحكيم يَجُرُّهُ نحوَ الجموعِ وهو يقولُ:

«اصرفهم بعيدًا أيها الحكيمُ.. أرجوك.. أرجوك».

كانت مفاجأةً مذهلةً للناسِ أن يرَوْا سلطانَهم الجبارَ راكعًا أمامَهم، خائفًا يرتجفُ، يرددُ كلمةً واحدةً «أرجوكم، أرجوكم»؛ لا يقدرُ على النطقِ بغيرها. خلَّصَ الحكيُم رداءَهُ من قبضةِ السلطانِ.. ثم هبطَ درجاتِ الشرفةِ، وشقَّ لنفسه طريقًا بين الجموعِ، مغادرًا القصرَ، هابطًا التل.. فلَحِقَ به عِمران، وعادَ معه إلى الجبل.

بعد فترةٍ، أفاقت الجموعُ من ذهولِها، فتراجعوا يتهامسون، تاركين القصرَ وحدائقَه.. عائدين إلى تلالِهم وقراهُم، يتساءلون متعجبين كيف كانوا يخافون رجلاً بهذا الضعفِ والجبنْ؟!!.

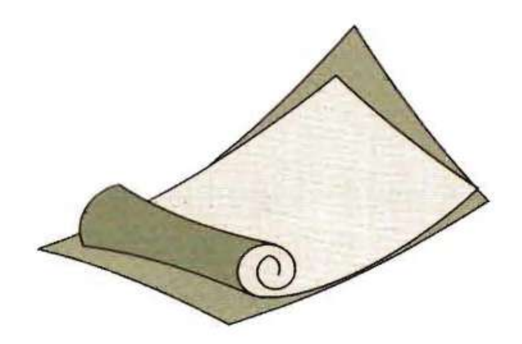


بعد أيام تجمعَ بنو همّام لوداعِ الحكيم وعمران، وراحوا يتذاكرون الليلةَ المشهودةَ.. فقالت أمُّ همّام: «الحمد لله.. أخيرًا عرفَ أهلُ الجزيرةِ أن سلطانَهم مجردُ رجلٍ.. يخافُهم أكثرَ مما يخافونَهُ».

فعلَّقَ حميدٌ قائلاً: لكنهم ما زالوا مستسلمين لظلمه.. كأن شيئاً لم يتغيرْ».

فردت نجلاء، كبرى بناتِ همّام: «لابد أن شيئًا قد تغيرَ.. أليس كذلك يا عمي لُقمانُ؟».

قال الحكيم: «نعم يا بْنتي.. إن شيئًا كبيرًا قد تغيرَ في نفوسِ الناسِ وفي عقولهم.. لقد كانوا مستسلمين للظلم.. لكنهم الآن يتحملونه على مضضٍ.. وسيأتي يومٌ يرفضونه تمامًا.. فيقاومونه، ويدافعون عن حريتّهِم وكرامَتِهِم.. حتى يستردوها كاملةً».




اللمسة
الذهبية

اللمسة الذهبية

كان الحكيم لُقمانُ وتلميذه عِمران، في طريقهما من جزيرةِ الكروم، إلى الوادي، فنزلا في ميناءِ جزيرةِ مرداسَ، ليركبا منهُ سفينةً أخرى، تحْمِلهُمَا إلى الجنوب.

كان الحكيمُ وعِمران يجلسان في الميناءِ، ساعةَ العصرِ، يتحدثان عن قصةِ موسى عليه السلامُ مع فرعونَ والسحرةِ.. فقالَ الحكيمُ: «كان السحرةُ يَسْحَرون أعينَ الناسِ ـ أي يؤثِّرون عليها ـ ويسترهِبونَهُم ـ أي يؤثرون على عقولهم ـ لكنهم لم يكونوا يُغَيِّرون طبيعةَ الأشياءِ.. لذلك عرفوا أن عملَ موسى عليه السلامُ لم يكن عملَ ساحرٍ.. فآمنوا باللّه في الحالِ».

في تلك اللحظةِ.. أقبلَ عليهما الوزيرُ في موكبه الرسمي.. فحيا لُقمان، وطلبَ منه أن يصحَبه لمقابلةِ ملكِ الجزيرةِ، لأمرٍ مهمٍّ وعاجلٍ..وأكَّد له أن المقابلةَ سوفَ تنتهي في وقتٍ يتيحُ لهما اللحاقُ بالسفينةِ المسافرةِ ذلك المساء.

وصلَ الموكبُ إلى القصرِ، وصَحِبَ الوزيرُ الحكيمَ وتلميذَه إلى قاعةٍ واسعةٍ، لها أبوابٌ ضخمةٌ من الخشبِ المحفورِ، وتغطي نوافذَها ستائرُ من الحريرِ، وفي صدرِ القاعةِ جلسَ المَلكُ على مقعدٍ ضخم من الذهبِ الخالصِ .. وحوله قِطَعٌ من الأثاثِ والتُّحَفِ من كلِّ شكلٍ ونوعٍ، كلُّها من الذهبِ الخالصِ.

قال الملكُ: «إنك تعرفُ أهميةَ الذهبِ، فهو مصدرُ القوةِ في العالم كلِّه.. يُغْني الناسَ عن كلِّ شيءٍ في الحياةِ، لكن باقي الأشياءِ لا تُغني عنه.. وأهلُ البلادِ يعرفون حبي له، حتى إنهم يقولون عني «الملك ميداس» تشبيهًا لي بالملك الشهير ذي اللمسة الذهبيةِ في أساطيرِ اليونانِ القديمةِ».

هزّ لُقمان رأسَه ولم يقلْ شيئًا، فتابع الملك كلامه: «والآن.. أريدُك أن تمنحَني، بِسِحْرِكَ، اللمسَةَ الذهبيةَ التي كانت للملكِ ميداس».

قال لُقمان: «ولكني مجردُ رجلٍ عادي.. ولستُ ساحرًا».

قال الملكُ: «إنك الحكيمُ الذي تَغَلَّبَ على سلطانِ العصرِ والأوانِ، ومن يفعلُ ذلك، فلابد أنه يملكُ قدراتٍ سحريةً.. ولن أسمحَ لك بمغادرةِ القصرِ إلا إذا مَنَحْتَني اللمسةَ الذهبيةَ».

قال الحكيمُ بعد تفكيرٍ: «إذا كنتَ مصممًا، فلا بأس.. ولكني أُحَذِّرُكَ أن اللمسةَ الذهبيةَ لن تحققَ لك ما ترجوه من السعادةِ، وربما زادتك تعاسةً»!!

قاطعهُ الملكُ قائلاً: «لقد تحسبتُ لذلك.. وأريدُكَ أن تمنحَني لمسةً تُحوِّلُ كلَّ شيءٍ ذهبًا ما عدا الناس..



حتى لا يُصيبَني ما أصابَ ميداس الأولَ عندما تحولت ابنتُه إلى تمثالٍ من الذهبِ».

أشار الحكيمُ إلى التحفِ الذهبيةِ المنتشرةِ حولَه وقال: «إذن.. اجلسْ على الأرضِ وادفنْ يَدَيْكَ الاثنتين بين قطعِ الذهبِ الخالصِ، من أي نوعٍ وأي شكلٍ.. ثم اقضِ الليلةَ كلَّها دون أن تَتَحركَ.. وبذلك تكتسبُ اللمسةَ الذهبيةَ».

غادرَ الحكيمُ وعِمران القصرَ، وتوجها إلى النهرِ ليركبا السفينةَ المسافرةَ إلى الجنوبِ.

أما الملكُ، فصرفَ رجالَهُ، وأغلقَ أبوابَ القاعةِ، وفتحَ خزانةً سريةً في الجدارِ، أخرجَ منها صندوقًا معدنيًا، متينًا، مليئًا بقطعِ النقودِ الذهبيةِ من كلِ صنفٍ. فتحَه بمفتاحٍ خاصٍ من الذهبِ الخالصِ.. ثم جلسَ متربعًا على الأرضِ أمامَ الصندوقِ، ودَفَنَ يديْه بينَ القطعِ الذهبيةِ، وظلَّ ساكنًا لا يتحركُ.. حتى نام.



أحس الملكُ بأشعةِ الشمسِ تلفَحُهُ بحرارتِها.. وَتَلَفَّتَ حولَه، فرأى نورَها يغطي أرضَ القاعةِ.. فقامَ من مكانِه، وهو يستعيدُ في ذاكرتِه ما دار بينهُ وبين الحكيم.. وأَسْدَلَ ستائرَ النافذةِ.. فتحولت الستائرُ في الحالِ إلى رقائقَ من الذهبِ الخالصِ..!!

كاد الملكُ يُجَنُّ من الفرحِ.؛ فقد تحققت أخيرًا أمنيةُ حياتِه.. فانطلَقَ يتجولُ في القاعةِ، ويلمسُ كلَّ شيءٍ بيديْه.. ثم انتقلَ إلى القاعاتِ الأخرى في القصرِ، وَيلْمِسُ كلَّ ما يراه.. فتحولت الأبوابُ والمقاعدُ والمرايا والكتبُ والملابسُ إلى ذهبٍ.. حتى وصل إلى غرفةِ الإفطار، حيث تجلسُ زوجتُه الملكَةُ في انتظاره.. فانْدَفَعَ نحوها وهو لا يتمالكُ نَفْسَه من الضحكِ، يَحْكي لها ما حدثَ، وَيلْمِسُ ما على المائدةِ من طعامٍ وأوانٍ.. فتحولَ الخبزُ والجبنُ والعسلُ، والشايُ والحليبُ، إلى ذهبٍ..!!

فوجئت الملكةُ بما حدثَ، فأبعدت صحنَها عن متناولِ يد زوجِها.. وجلسَتْ في ركنٍ بعيدٍ تأكلُ وحدها.

أما الملكُ.. فجلسَ على رأس المائدةِ بفخرٍ وسعادةٍ.. يأكلُ شطائرَ الذهبِ، المحشوةَ ذهبًا، ويشربُ ذهبًا سائلاً مضافًا إليه ذهبٌ سائلٌ..!!

بعد قليلٍ.. لاحظَ الملكُ أنه يأكلُ ويشربُ صنفًا واحدًا، بلا طعمٍ أو نكهةٍ.. وعَرَفَ أنه سيقضي باقي حياتهِ يأكلُ ذهبًا ويشربُ ذهبًا.. فقال لنفسه: «ليتني طلبتُ من الحكيم أن يستثني الطعامَ والشرابَ من اللمسة الذهبية».

بعد الإفطارِ، جلسَ الملكُ في قاعة الاستقبالِ، يُصَرِّفُ أمورَ الدولة، ويستقبلُ الوفودَ الزائرةَ.. ودخلت ابنتُهُ ذاتُ العشرِ السنوات لتُحَيِّيَهُ وتقدمَ له زهرةً بيضاءَ، كما اعتادت أن تفعلَ كلَّ يوم.

لَمَسَ الملكُ ابنتَهُ بترددٍ.. فلم تتحول إلى تمثالٍ من ذهبٍ.. فزالَ خوفُهُ، واحْتَضَنَهاَ وقَبَّلَهَا. وقرَّبَ الزهرةَ ليَشُمَّها، فوجدَها قد فقدت لونَها وعبيرَها، وتحولت إلى زهرةٍ من ذهبٍ..!!

انزعجت الأميرةُ لما أصابَ زهرتَها.. فانهمرَت دموعُها وهي تقولُ لأبيها: «أرجوك يا أبي.. لا تقتربْ من حديقتي حتى لا تحولَ أزهارَها إلى ذهب».

خرجت الأميرةُ من القاعة، وبقي الملكُ وحدَه يتأملُ الزهرةَ الذهبيةَ، ويفكرُ أنه قد حُرِمَ من لمْسِ النباتات والأزهار، لئلا تفقدَ ألوانَها وروائحَها.. فقالَ لنفسه: «ليتني طلبتُ من الحكيم أن يستثني النباتات من اللمسة الذهبية».

مرَّ الصباحُ بطيئًا.. تحولت فيه الأوراقُ والأقلامُ والأختامُ الرسميةُ إلى ذهبٍ.. وكذلك ملابسُ الحرسِ والوزراءِ والوفودِ.. حتى الهدايا التي أُرْسِلَت من البلادِ الصديقة، فَقَدَتْ معالمَها وصارت ذهبًا..!

في الظهيرة، كان كل ما يحيطُ بالملكِ قد أصبحَ ذهبًا، حتى ضَجِرَ من رؤية الذهبِ، ولا شيء غَيْرَ الذهبِ.. فغادرَ القصرَ، وخرجَ خلسةً إلى حدائقِ القصرِ والمزارعِ الملحقةِ به.. وأخذَ يتمشى بين صفوفِ الأشجارِ والنباتاتِ وحظائرِ الحيواناتِ والدواجنِ، ويحرصُ على ألا يَلْمِسَ شيئًا، لئلا يُفْسِدَ جمالَ المزرعةِ.



رأى الملكُ ابنَ أحد العمالِ يحتضنُ مُهْرًا ويطعِمُهُ بيدِهِ.. فاقتربَ منه ومدَّ يَدَهُ ملاعبًا.. فتحولَ المُهْرُ في الحالِ إلى تمثالٍ من ذهبٍ..!!

بُهِتَ الصبيُّ لما أصابَ المُهْرَ.. فصارَ يبكي ويصيحُ في الملكِ قائلاً: «انظر ماذا فعلتَ بِمُهْري»..!

أَقْبَلَ عاملُ المزرعةِ مستفسرًا.. فلما عَرَفَ سببَ صياحِ ابنِه، قال للملكِ: «أرجوك يا مولاي، ابتعد من هنا.. وإذا أردت مزيدًا من الذهب فاجلسْ في قصرِك وحولْ ما فيه كما تحب.. ولكن، اترك لنا زرعَنا وحيواناتِنا..»

انسحَبَ الملكُ مخذولاً وهو يرددُ لنفسِهِ: «ليتني طلبتُ من الحكيمِ استثناءَ الحيوانات من اللمسةِ الذهبيةِ».

عادَ الملكُ إلى قصرِه وقتَ الغداءِ، لكنه كان قد فَقَدَ الرغبةَ في الطعام، فَفَضَّلَ أن يأويَ إلى جناحِه الخاص ليرتاحَ بعضَ الوقتِ.

دخلَ الملكُ غرفتَهُ.. فَوَجَدَ نَفْسَهُ يمشي على بساطٍ من ذهبٍ، وينامُ على فراشٍ من ذهبٍ.. فتذكر كم كان فراشُهُ المحشو ريشًا لينًا ووثيرًا.. وافتقدَه وملابسَهُ وملاءاتِه القطنيةَ المريحةَ، وبساطَهُ الصوفيّ الدفيءَ.. فَهَمَسَ لنفسِهِ بحسرةٍ: «ليتني طلبتُ من الحكيمِ استثناءَ الملابسِ والفرشِ والبسطِ من اللمسةِ الذهبيةِ».

مالت الشمسُ نحو المغيبِ، فعادَ الملكُ إلى قاعة الاستقبال، وقد استبدَّ به الضيقُ والمللُ.. فَصَرَفَ مرافقيه وخرجَ إلى الشرفةِ يتأملُ السحبَ في السماءِ، والقواربَ التي تسيرُ في النهرِ، والجبالَ البعيدةَ المكسوةَ بالأشجارِ..



فَحَمِدَ اللَّه على أنها أبعدُ من أن يلمسَها بيديه فتتحولَ إلى ذهبٍ، وَتَفْقِدَ جمالَها وبهاءَها.. ثم عادَ إلى القاعةِ، وأخرجَ صندوقَه ذا النقودِ الذهبيةِ، وجلسَ أمامَه على الأرضِ، وراح يتفرسُ فيه.. فوجدَهُ قد فَقَدَ بريقَهُ وروعتَهُ بعدَ أن أصبحَ كلُّ ما يحيطُ به ذهبًا.. وتذكرَ شعورَهُ بالسعادةِ والثراءِ عندما كان ما في هذا الصندوقِ هو كلُّ ما يملكُهُ من ذهبٍ.

بلغَ به الضيقُ درجةً لا تحتملُ.. فأقفلَ الصندوقَ، وأسندَ رأسَهُ على حافَّتِه.. ونامَ.



في ذلك المساء كان الحكيمُ لُقمان يجلسُ مع تلميذِه عِمران على السفينةِ التي غادرت جزيرةَ مرداس، مبحرةً إلى الجنوبِ..

سأل عِمران: «هل يسعدُ الملكُ حقًّا إذا امْتَلَكَ اللمسةَ الذَّهبيةَ؟».

قال الحكيمُ: «هل تسعدُ أنتَ إذا حُرمتَ من كلِّ مباهجِ الحياةِ، مقابلَ امتلاكِكَ أضعافًا مضاعفةً من الذهبِ؟».

ردَّ عِمران مقاطعًا: «كلا.. لا يسعدُني ذلك أبدًا.. لا أظُن أن الذهبَ يغنيني عن باقي الأشياءِ.. ولكن، هل سيكون للمَلِكِ لمسةٌ ذهبيةٌ حقًّا.. إذا نامَ واضعًا يديه بين قطعِ الذهبِ الخالصِ؟!».

قال الحكيمُ: «أنسيتَ يا بنيّ أن السحرَ هو أن تؤثرَ في أنظارِ الناسِ و في تفكيرِهم؟».

ردَّ عِمران بسرعةٍ: «نعم.. نعم.. لقد تذكرتُ.. ولكن، كيف يتخلصُ الملكُ من هذا الوهمِ.. وهمِ اللمسةِ الذهبيةِ؟».

قال الحكيمُ مُطَمْئِنًا : «سيزولُ هذا الوهمُ مع طلوعِ الصباحِ، بمجردِ أن يستيقظَ من نومِه.. ولن يبقى له إلا شعورٌ خفيٌّ بأن الذهبَ لن يُحَقِّقَ له السعادةَ التي يرجوها».


رجل
متهين



رجل متميز

تسلق عمران الجبل برشاقة، حتى وصلَ إلى حيثُ يجلسُ الحكيمُ لُقمان يقرأُ كتابًا.. فوقفَ أمامَهُ وقال: «السلامُ عليكَ يا عمي لُقمان».

رفعَ الحكيمُ رأسَه وابتسمَ قائلاً: «وعليكَ السلامُ ورحمةُ اللّه وبركاتُه.. أهلاً يا عِمران.. هل سافرَ ضيوفُكُم؟».

نعم، سافروا اليومَ بعد صلاةِ الفجر.

وقفَ عِمران يرسمُ أشكالاً على الأرضِ بقدمِهِ.. ثم جلسَ متربعًا أمامَ الحكيم وقالَ: «لقد أثارت زيارةُ هؤلاء الضيوفِ المتميزين أفكارًا وتساؤلات كثيرةً في نفسي».

أسندَ الحكيمُ ظهرَهُ إلى جدارِ الكوخِ منتظرًا.. وبعد فترةٍ سألَ عِمران: «كيفَ يصبحُ الإنسانُ متميزًا؟».

ظلَّ الحكيمُ صامتًا، فتابَع عِمران: «أريدُ أن أكونَ أقوى رجلٍ في الوادي، حتى أصبحَ متميزًا.. فالناسُ يحترمون المتميزين.. هل تساعدني يا عمي لُقمان لأكونَ متميزًا؟».

قالَ الحكيمُ: «يسعدني أن أساعِدَكَ.. ولنبدأ خِطَّتَنا بِجولةٍ في البلاد».

في ذلك المساءِ، زارَ الحكيمُ أهلَ عِمرانَ، واتفقَ معهم أن يسافِرَ عِمران وحدَه لزيارةِ بعضِ معارفِ الحكيم.

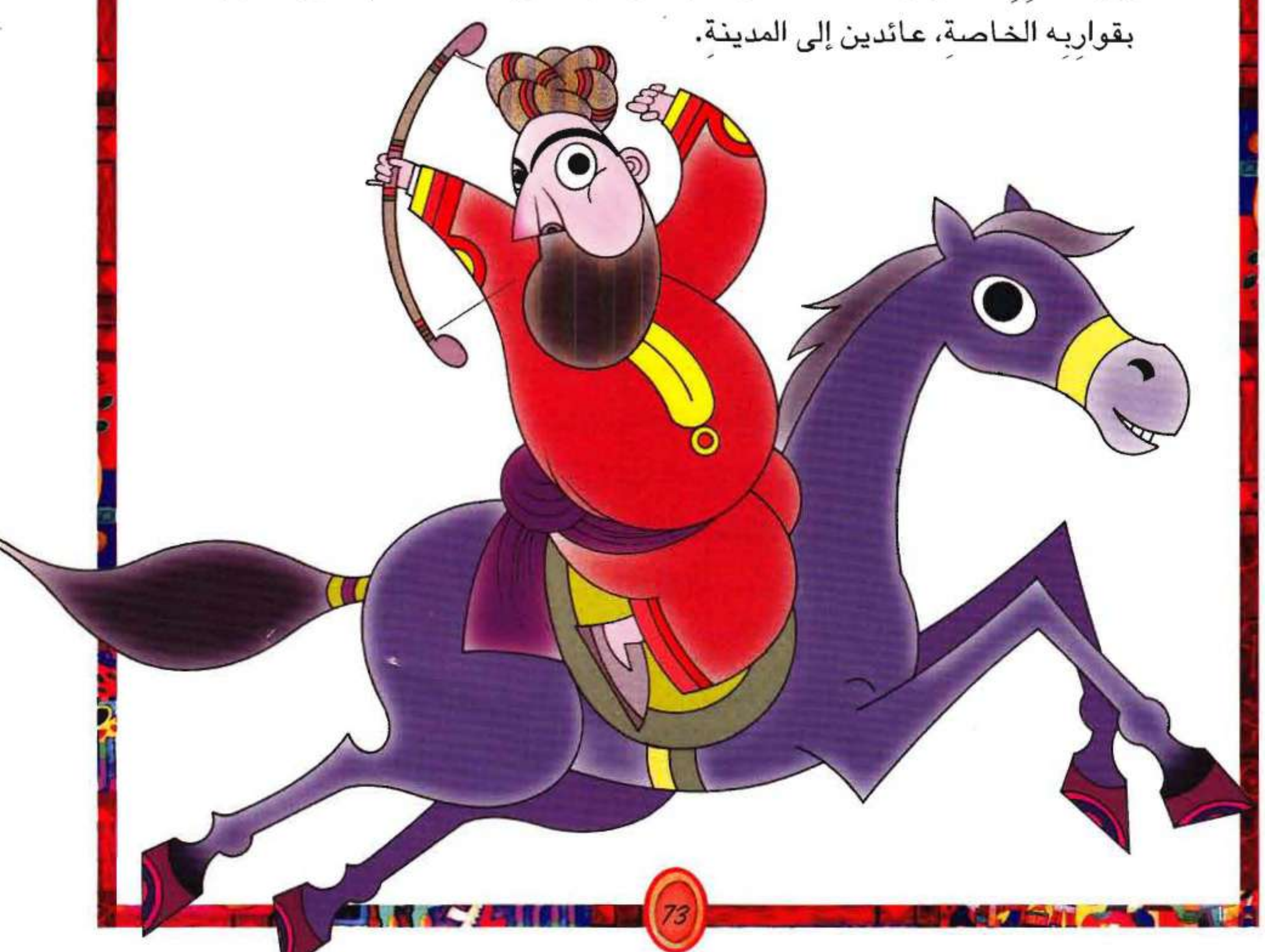
وفي اليوم التالي، بدأ عِمرانُ رحلتَهُ مع القافلَةِ المسافرَةِ إلى الجنوبِ.. ووقفَ أبوه وإخوتُهُ مع الحكيم يودعونَهُ في ساحةِ القريةِ. وقبلَ أن تتحركَ القافلة، قَدَّمَ إليه الحكيمُ دفترًا صغيرًا، وقالَ له: «اكتبْ فيه ما مرَّ بِكَ في رحلَتِكَ من تجارِبَ وأفكار.. لنقرأه معًا بعد عَودَتِكَ إن شاءَ اللّه».

وصلَ عِمران إلى مدينةِ «جادو» في الجنوبِ، وذهبَ من ساحة المنَاخ

مباشرةً إلى دارِ كبيرِ تجارِ المدينةِ ونقيبِهم، حاملاً إليه تحيات الحكيم لُقمانَ.
رحبَ به النقيبُ واستضافَهُ مدةَ إقامتِه في المدينةِ.

نقيبُ التجارِ أشهرَ رجلٍ في المدينةِ، وأغنى أغنيائها.. يناديه الناسُ باسم «السيدِ النقيبِ».. وكان يسكنُ في قصرٍ كبيرٍ، تمتدُّ حدائقَهُ إلى حافةِ النهرِ.. وقد لاحظَ عِمران أن أصدقاءَ السيدِ النقيبِ يبدون له احترامًا وتقديرًا لا يبدونَهُ لأحدٍ غيرَهُ.. وكذلك كان العاملون في خدمتِه، وأهلُ المدينةِ كُلهم.. وكانوا يقولونَ لِعِمرانَ كلما سألهم عن سرٍّ تميزِه: «إنه يتبرعُ بمالِه للمرضى والفقراءِ».

في أحدِ الأيامِ، دعا السيدُ النقيبُ عِمرانَ إلى رِحْلَةِ صيدٍ مع بعضِ أصدقائِه. فأمضوا نهارَهُم على ظهورِ الخيلِ، يطاردون الوعولَ في الصحراءِ. ثم عادوا إلى مخيمِه فتناولوا طعامًا فاخرًا.. واستراحُوا حتى المساءَ.. ثم عبرُوا النَّهرَ بقوارِبه الخاصةِ، عائدين إلى المدينةِ.



في تلك الليلةِ، كتبَ عِمرانُ في دفترِهِ: «السيدُ النقيبُ رجلٌ في غايةِ الكرم.. لا يخلو بيتُهُ أبدًا من الضيوفِ.. ويقومُ بأعمالِ خيرٍ كثيرةٍ.. إنه رجلٌ متميزٌ».

أمضى عِمران في مدينةِ جادو أسبوعًا.. أغْدَقَ عليه النقيبُ فيه من كرمه وحسنِ ضيافَتِه. لكن ذلك لَمْ يُسعدْه، فقد لاحظَ أن النقيبَ لا يجاملُ إلا أصدقاءَهُ من أغنياءِ المدينةِ ووجهائها. أما عامةُ الناسِ فيعامِلُهُم معاملةً دونَ ذلك.

ذات يوم، خرجَ عِمران مع السيدِ النقيبِ في عربتِهِ الفاخرةِ في جولةٍ بين مخازِنه. وآلَمهُ أن يرى حفاوَةَ الناسِ بالنقيبِ بالرغم من تعاليه عليهم. فَسَأَلَهُ متعجبًا: «كيف تقومُ بأعمالِ الخيرِ وتنفقُ مالاً كثيرًا لخدمةِ الناسِ.. ثم تعامِلُهُمْ بخشونَةٍ وجفاءٍ؟».

فردَّ النقيبُ ببساطةٍ: «إن ما أقَدِّمُهُ من مالٍ، أَحْصُلُ مقابِلَهُ على كثيرٍ من التقديرِ والخدماتِ.. كما أن الفقراءَ يكفيهم العطاءُ الماديُّ فقط، ولا يستحقون الاحترامَ.. فالأغنياءُ والأقوياءُ فقط يستحقون الاحترامَ».

في تلك الليلةِ، كتبَ عِمرانُ في دَفْتَرِه: «لقد اكتشفتُ للأسفِ أن السيدَ النقيبَ غنيٌّ بمالِه فقط.. أما نفسهُ وأخلاقُهُ ففي غايةِ الفقرِ.. لا أتمنى أن أكونَ مثلَه أبدًا».

في الصباحِ التالي، وَدَّعَ عِمران السيدَ النقيبَ وسافرَ مع القافلةِ المتجهةِ إلى مدينةِ «رأسِ مجاورٍ» على الجبلِ الشرقي.. فوصلَها بعد صلاةِ العصرِ.

عَبَرَ عِمران الشارعَ من مَنَاخِ القافلةِ إلى مركزِ الشرطةِ. وقابلَ عمدَةَ البلدَةَ وأبلَغَهُ سلامَ الحكيم وتحياته.. فَرَحَّبَ به العمدةُ ودعاه إلى الغداء في داره الكبيرةِ الفسيحةِ.. التي تتصلُ حديقَتَها بمركزِ الشرطَةِ.. فكان العمدةُ يديرُ أمورَ البلدةِ من داخلِ بيتِهِ في كلِ الأوقاتِ.. حتى في أثناءِ تناوُلِه الطعام.

كانت «رأسُ مجاورٍ» مدينةً جبليةً جميلةً. جوُّها معتدلٌ بالنهارِ وباردٌ بالليلِ، تُظَلِّلُ الأشجارُ الكثيفةُ طرقاتِها المتعرجةَ، وتصلُ السلالمُ الحجريةُ بين شوارعِها وبيوتِها.

بعد الغداءِ، خرجَ عِمران مع العمدةِ يتجولان في المدينةِ، يتبعُهُما رجلُ شرطةٍ خاصٍ. فَأُعْجِبَ بحزمِ العمدةِ، وحرصِه على تطبيقِ القانونِ وردعِ المخالفين.



كما أعْجَبَهُ أن أهل المدينة لا يعترضون على أي قرارٍ يتخذُهُ العمدة، حتى لو كان خاصًا بهم.
أنزلَ العمدةُ عمرانَ في فندقِ المدينةِ باعتبارِهِ ضيفًا رسميًا. فقدموا له كلَ ما في وسعِهم من وسائلِ الراحةِ، ولقى منَ الإكرامِ والتكريمِ أكثرَ مما يحتاجُ.. فجلسَ في ذلك المساءِ في شرفتِهِ المطلةِ على الوادي.. وكتبَ في دفترِهِ: «رأسُ مجاورٍ مدينةٌ ساحرةٌ، وعمدَتُها رجلٌ حازمٌ، يهابُهُ الناسُ جميعًا.. وإذا سارَ في الطرقاتِ، توقفت المنازعاتُ وخَفَتت الأصواتُ احترامًا له.. ياله من رجلٍ مُتميزٍ».

في الصباحِ، انطلق عِمران لزيارةِ العمدةِ في مركزِ الشرطة. وجلسَ يراقبُهُ وهو يديرُ أمورَ البلدةِ بحزمٍ وكفاءة.. حتى انتصف النَّهارُ، فقدَّمَ إليه أحدُ أعوانِهِ أوراقًا تخصُ تاجرًا مسجونًا.. فألقى العمدةُ عليها نظرةً سريعةً، وأمرَ بإطلاقِ سراحِ التاجرِ.. ثم التفت إلى عِمران شارحًا ما حدث، قال: «لقد عثرنا منذ شهرين على بضائعَ مسروقةٍ في مخزنِ أحدِ تجارِ التجزئة.. قال إنها تخصُّ هذا التاجرُ.. فصادرنا أموالَهُ وأمرنا بحبسِهِ.. ثم تبينا اليومَ أنه بَريءٌ، فأمرنا بإطلاقِ سراحِهِ».

خرجَ التاجرُ من حبسِهِ يُرَدِّدُ: «ألَمْ أقلْ لكم إنني بَريءٌ!.. على الأقلّ ردوا إليَّ أموالِي وبضاعتي التي كانت في مخازني».

فَنَهَرَهُ العمدةُ قائلاً: «لقد صادرناها وبعناها لصالح مرافقِ المدينة، ولا يمكنُ إعادَتُها.. ألا يكفيكَ أننا رددنا لك حريتَك؟».

خرجَ التَّاجرُ مُنكّسَ الرأسِ محطمًا.. وخرجَ وراءَه عِمرانُ فزعًا مما رأى وسمعَ.. وذهبَ من فورِه إلى الفندقِ، فجمعَ حاجياتَه، وسألَ صاحبَ الفندقِ وهو يهمُّ بمغادرَتِه: «كيف يحرصُ عمدتُكم على تطبيقِ القانونِ وإنصافِ الناسِ بعضَ الوقتِ.. ثم يظلمُهُم في أوقاتٍ أخرى؟!!».

قالَ صاحبُ الفندقِ باستسلام: «إنه يرى يا بُنَي أن صاحبَ السلطةِ لا يتراجعُ أبدًا عن قراراتِه مهما كانت خاطئةً أو جائرةً.. ويقولُ إن أهلَ البلدةِ لا يَضرُّهُم أن يظلمَهم أحيانًا مقابلَ ما يوفِّرُهُ لهم من استقرارٍ وأمنٍ وحمايةٍ».

لم يتحملْ عِمرانُ أن يسمعَ أكثرَ من ذلك.. فغادَرَ الفندقَ مسرعًا يبحثُ عن وسيلةِ مواصلاتٍ تحملُهُ إلى خارجِ المدينةِ. حتى وجدَ رجلاً مسافرًا ببضاعتِه على ظهورِ البغالِ. وافق صاحبُها أن يحملَه معَهُ إلى ميناءِ «رحبة» في الشمالِ.

غادرت قافلةُ البغالِ «رأسَ مجاورٍ» بعد صلاةِ العصرِ، فتَنَهَّدَ عِمرانُ، وأخرجَ دَفْتَرَهُ وكتبَ فيه: «تخلصتُ من حمْلٍ ثقيلٍ عندما غادرتُ هذه البلدةَ، بعد أن أمضيتُ بها يومًا واحدًا فقط.. مرَّ كأنَهُ كابوسٌ.. لقد كان الناسُ يقومون على خدمتي ويلبون رغباتي إذعانًا لأوامرَ عُمْدَتِهِم وخوفًا من غضبِهِ، وليسَ حبًّا له أو ترحيبًا بي.. لقد اكتشفتُ للأسفِ أنه ليسَ متميزًا على الإطلاقِ».



«رحبةُ» العتيقةُ تقومُ على تلٍ صغيرٍ، يُطلُ على ميناءِ الصيدِ.. وإلى الغربِ منها تقومُ «رحبةُ الجديدة» ذات الميناءِ التجاريِ الكبيرِ.

وصلَ عِمران «رحبةَ العتيقةَ» بعدَ أذانِ المغربِ.. وبحثَ عن العم سعيدٍ، كما أوصاهُ الحكيمُ لُقمانُ.. فوجَدَهُ في مقهى الصيادين، يجلسُ مع رجلٍ طويلٍ عريضٍ، حليقِ الرأسِ اسمُهُ المُعَلِّمُ عَرَفَة.. كان العمُّ سعيدُ يشكرُه بصوتٍ هادئٍ

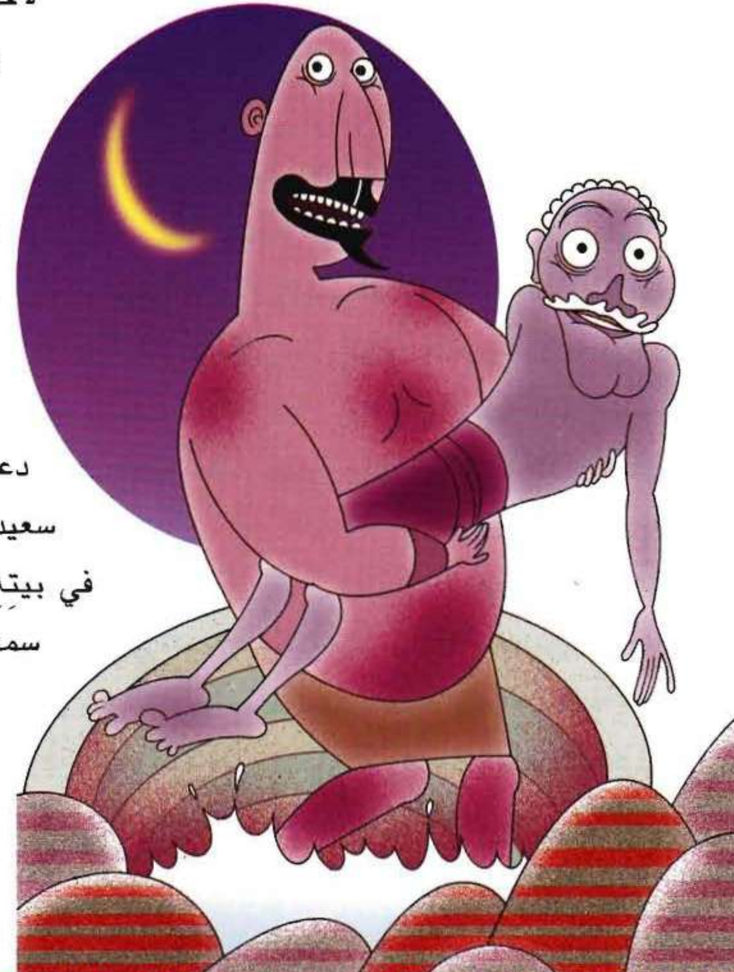
هامس.. بينما كان المُعَلِّمُ عَرَفَةُ يُلَوِّحُ بيديه ويقول بصوتٍ عالٍ: «العفوُ.. العفوُ يا عم سعيد.. أنا في الخدمة دائمًا».

رحَّبَ العمُّ سعيد بِعمرانَ، وقدّمَهُ للمُعَلِّم عَرَفَة قائلًا: «إنه ابنٌ عزيزٌ من بلدة الحكيم لُقمان».. فبدا على المعلم عرفة أنه لا يعرفُ شيئًا عن الحكيم.. لكنه حيَّا عمرانَ بترحابٍ شديدٍ، ورجاه أن يلجأَ إليه إذا احتاجَ أي مساعدةٍ طولَ إقامتِه في رحبة، وعرضَ أن يستضيفَهُ في بيتِه.. فشكرَهُ عِمران، وفَضَّلَ الإقامةَ مع العمِ سعيد، كما اقترحَ عليه الحكيمُ من قبل

بعد صلاةِ الفجرِ.. ذهبَ عِمران مع العم سعيد إلى الميناءِ لانتظارِ عودَةِ الصيادين بمراكبهم.. ثم ساعدَهُ في نقلِ الأسماكِ إلى سوقِ السمكِ.. وهناك التقى بالمعلمِ عَرَفَة الذي عرضَ عليه أن يصحَبَهُ ليُرِيَهُ معالمَ المدينةِ والميناء.

لاحظَ عمران أن أهلُ المدينةِ يحبون المعلمَ عَرَفَة ويرحبون به.. وأنه يُحَيِّيهم ويمازِحَهُم طولَ الوقتِ، ولا يترددُ عن تقديم مساعدتِه للصغارِ والكبارِ.

بعدَ صلاة العصرِ.. دعا المعلم عَرَفَة العمَ سعيد وعمران لتناول الطعام في بيتِه.. وبينما هم يأكلون.. سمعوا صراخًا وصياحًا، ونداءَ استغاثة بالمعلم عَرَفَة.. فتركَ طعامَهُ في الحالِ، وانطلَقَ يجري



نازلًا التل نحو الميناء.. وخرجَ وراءَهُم العمُّ سعيد وعمران.

وقفَ عمران مع الناسِ على صخرةٍ عاليةٍ خارجَ الميناء، يراقبون المعلمَ عَرَفَة وهو يَقْفِزُ في البحرِ، ويسبحُ بسرعةٍ.. حتى وصلَ إلى قاربٍ مقلوبٍ بين الصخورِ.. فغاصَ في الماءِ؛ ثم ظهرَ بعد مدةٍ حاملاً رجلاً مصابًا..

ثبتَه على ظهرهِ وسبحَ به نحو المراكبِ التي تجمَّعَتْ لمساعدتِه؛ فرفعوا المصابَ عن ظهرِه.. وعادَ المعلمُ عرفة مرةً أخرى إلى الصخورِ لإخراجِ الغريقِ الآخرِ.. ثم عادَ مرةً ثالثة لتخليصِ القاربِ العالقِ بين الصخورِ.

غربَت الشمسُ، وأظلمَت الدنيا، وعادَ أكثرُ الناسِ إلى بيوتِهم.. وظلَّ المعلِّمُ عَرَفَة يصارعُ الأمواجَ ويرتطمُ بالصخورِ.. حتى خَلَّصَ القاربَ، وسحبَهُ إلى داخلِ البحرِ حيث المراكبُ الأخرى.. فصعدَ إلى إحداها، ووقفَ بنشاطٍ يساعدُ في ربطِ القاربِ وَسحْبِهِ إلى الميناءِ.

دخلَ المعلمُ عَرَفَة «رحبةَ العتيقةَ» دخولَ الفاتحين.. فقد تجمَّعَ الناسُ حولَه يهتفون باسمِهِ ويشكرونَهُ.. أما هو، فكان يمشي مَحْنيَّ الرأسِ، يبتسمُ في خجلٍ وهو يقولُ: «العفوُ.. العفوُ».. حتى وصلَ إلى بيتِه، فدخلَهُ وأغلقَ بابَهُ.

في تلك الليلةِ، جلسَ عمرانُ وحدَه أمامَ بيتِ العمِّ سعيدٍ، وعلى ضوءِ مصباحِ الشارعِ كتبَ في دفترِهِ: «المعلمُ عرفة أشهرُ رجلٍ في الميناءِ. وهو بطلُ رحبةِ العتيقةِ بلا منازعٍ.. لم يتغلَّب عليه أحدٌ منذ كان في الرابعةِ عشرةَ من عمرِه.. إنه قويٌّ وشجاعٌ. كما إنه طيبُ القلبِ كريمُ النفسِ.. وأروَعُ ما فيه حبُّهُ للناسِ وحرصُهُ على خدمتِهم.. إنه رجلٌ متميزٌ حقًا. وصورةٌ للرجلِ القويِ الذي أتمنى أن أكوَن مثلَهُ».

أمضى عمران في رحبةَ أيامًا ممتعةً. كان يخرجُ للصيدِ في مراكبِ الصيادين، ويساعدُ الباعةَ في سوقِ السمكِ.. كما تعلَّمَ إصلاحَ الشباكِ وطلاءَ القواربِ.. وكان يعاونُ العمّ سعيد في حساباتِه.. وأصبحَ المعلمُ عَرَفَةُ أعزَ أصدقائِه، فقد عَلَّمَهُ الكثيرَ من فنونِ القتالِ والدفاعِ عن النفسِ.. وكان عمران يتبعه دائمًا، وينظُرُ بدهشةٍ وإعجابٍ إلى قوتِهِ الخارقةِ وبطولتِه..

لكنه لاحظَ أن المعلمَ عَرَفَة لا يعرفُ وسيلةً لحلِ مشاكلِ الناسِ إلا العنفَ والقوةَ.. فكان إذا رأى متنازعَيْنِ، تقدَم إليهما بحسم، فَيَصْرَعْهُما منهيًا المشكلَةَ، أو يصرعَ الذي يظنُّهُ معتديًا.. فإن تَبَينَّ له خطؤه.. تقدَّمَ إلى من ظلمَه معتذرًا، مهونًا عليه.. عارضًا كل ما في وسعه لتعويضه عما أصابَهُ.

كان عمران يتمنى أن يكونَ المعلمُ عَرَفة أقلَّ تهورًا في استعماله قوته. لكنه كان يخجلُ من مفاتحته.. فحدَّثَ العمَّ سعيد في ذلك. فقالَ العمُّ سعيد: «يا بُنيَّ.. إن هذا مقدارُ فَهْمِه لخدمةِ الناسِ وحلِ مشاكلِهم.. وأهلُ رحبةِ يعرفون ذلك عنه، ويقبلونه لأنه طيبُ القلبِ وَحَسَنُ النيةِ».

في تلك الليلةِ.. كتبَ عمران في دفترِه: «المعلمُ عرفةُ لا يملكُ وسيلةً أخرى لمعالجةِ الأمورِ غيرَ القوةِ البدنيةِ.. ولكني أتمنى أن يحترمَ الناسُ عقلي وتفكيري كما يحترمون قوتي».

أمضى عمران في رحبة العتيقة عشرين يومًا.. ثم غادرها مع القافلة المتجهة غربًا إلى العاصمَةِ..



كانت العاصمةُ مدينةً فخمةً ضخمةً.. يجري في وَسَطَهَا نهرٌ كبيرٌ، تقومُ على ضفَّتَيْهِ البيوتُ الفارهةُ ذات الحدائقِ والبساتينِ، والمدارسِ والمتنزهاتِ، والأسواق الكبيرةِ والساحاتِ الواسعةِ.

حطت القافلةُ في غربِ المدينةِ، حيثُ الأسواقُ والمحلاتُ والفنادقُ.. فعبرَ عمرانُ النَّهرَ إلى شرقِ المدينةِ وسارَ على قدميهِ في طرقاتٍ واسعةٍ تُظَلِّلُها الأشجارُ، حتى وصلَ إلى دارٍ كبيرةٍ فخمَةٍ، مثلَ كلِ الدورِ المجاورةِ لها.. وهناك طلبَ مقابلَةَ صاحبِها.. فسألَهُ الحارسُ عن اسمِهِ، وبلدِهِ، وسببَ زيارتِهِ، وعمن أرسلَهُ.. ثم أوصلَهُ بنفسِه إلى مكتبةِ السيدِ فارسِ.

كانت مكتبةُ السيد فارسٍ أكبرَ غرفةٍ رآها عمرانُ في حياتِهِ.. تُغَطَّى جدرانَها أرففٌ..



اصطفت عليها لوحاتٌ تخطيطيةٌ، وكتبٌ، وخرائطُ، ودراساتٌ وتقاريرُ.. في نظام وإتقانٍ.

انبهرَ عمرانُ بالمكانِ.. كما انبهرَ بخفَّةِ ظلِّ السيدِ فارسٍ وثقته الشديدةِ بنفسه.. وزادَ انبهارَه ما رآه من تقديرِ تلامذته ومساعديه وإجلالِهم له.

بعد انتهاءِ العملِ، صحبَ السيدُ فارسُ عمرانَ إلى جناحٍ آخرَ من الدارِ.. وقدمَهُ إلى عائلته.. وأنزلَهُ في جناحٍ خاصٍّ بالضيوفِ.. فاشْتدَّ إعجابُ عمرانَ وانبهارُه من أناقةِ البيتِ، وأدبِ أهلِه وثقافتِهم.

بعد العَشاءِ، دخل عمرانُ جناحَهُ، وأخرجَ دفترَهُ، وكتبَ فيه: «السيدُ فارسُ يتفوقُ على من حولَهُ بعلمِه وثقافتِه.. يعيشُ في بيتٍ جميلٍ، له طرازٌ معماريٌّ فريدٌ، صمَّمَهُ وأشرفَ على بنائِه بنفسِه.. فيه مكتبةٌ كبيرةٌ، أكبرُ من دارِنا كلِها... بها كلُ أنواعِ الكتبِ. فالسيدُ فارسُ رجلٌ عالمٌ، يهتمُّ بكلِّ العلومِ، ويُتقِنُها أكثرَ من أهلِها.. كما يتمتعُ هو وأهلُهُ بذوقٍ رفيعٍ وسرعةِ بديهةٍ لانظيرَ لها.. ياله من رجلٍ متميزٍ».

أقامَ عمرانُ في بيتِ السيدِ فارسٍ أسبوعين كاملين.. كان السيد فارسُ يرسلُهُ في رحلاتٍ إلى العاصمةِ وما حولَها، ليتنزَّهَ ويتعرف على معالمِها. كما أتاحَ

له الفرصةَ لاكتسابِ كثيرٍ من الخبرات والمعلومات بالعملِ معه في مكتبَتِه.. فكان عِمرانُ يرى كل يوم ما يزيدُ إعجابَه بالرجلِ ورغْبَتَهُ في الاقتداءِ به..

ولكن.. كثيرًا ما ضايقته التعليقاتُ الساخرةُ التي كان السيدُ فارسُ يوزعها طولَ الوقتِ على الناسِ من حولِه.. دون مراعاةٍ لمشاعرهم.

ذات يوم.. كان عِمرانُ يرتبُ بعضَ الكتبِ في أماكِنِها على الرفوفِ.. بينما كان السيدُ فارس مجتمعًا مع بعضِ العلماءِ الذين حضروا لاستشارته.

كان السيدُ فارسُ يستمعُ لرئيسِهِم وهو يشرحُ تصميمَ مستشفًى جديدًا يقيمونه.. ويبينُ المشاكلَ التي تواجِهُهُم.. والحلولَ التي يقترحونها.. فلما انتهى الرجلُ، قامَ السيدُ فارسُ بتثاقلٍ، وراحَ يُعَدِّدُ العيوبَ التي يراها في التصميم، ويسفِّهُ الحلولَ التي قدموها.. ثم اقترحَ عليهم أن يُعِيدُوا تصميمَ المستشفى كلَّه.

انصرفَ الحاضرون، ووقفَ عِمرانُ يجمعُ الأوراقَ وقد بدا عليه الضيقُ.. فسألَه السيدُ فارسُ عما به. فقال: «ألا يوجدُ حلٌّ آخرٌ إلا أن يعيدوا تصميمَ المبنى كلَّه؟».

فضحكَ السيدُ فارسُ وقالَ: «إن عندي حلولاً كثيرًا وبسيطةً.. لكني ضَنَنْتُ عليهم بها».

فسألَه عِمرانُ: «لماذا تَضِنُّ عليهم بعلم يساعدُهم، وينفعُ أهلَ المدينةِ؟!».

فقالَ السيدُ فارسُ بتعالٍ: «إنهم لا يستحقونه يا بني.. فليس لهم من الذكاءِ أو الذوقِ ما يمكِّنُهُم من فهمِه والانتفاعِ به».

خرجَ عِمرانُ من المكتبةِ وقد ازدادَ ضيقُهُ.. ولم يعُد يفكِّرُ إلا في الرَّحيلِ من العاصمةِ.. وعلى مائدةِ العشاء، استأذنَ مَضيفَهُ أن يرحلَ في الصباحِ إلى واحة السمَاني.. فشجَّعَهُ السيدُ فارسُ قائلاً إن ذلك يوسعُ مداركه وينمي خبراتَه. وأعطاه رسالةً إلى صديقِه السيدِ مهدي الذي يعملُ طبيبًا في الواحةِ منذ سنين.

عادَ عِمرانُ إلى جناحِهِ للمرةِ الأخيرةِ، وكتبَ في دفترِه: «لم أسمعْ السيدَ فارسَ

يمتدحُ أحدًا.. فكلُّ الناسِ عنده إما أن يكونوا بطيئي الفهم أو محدودي الكفاءة.. حتى صديقَه الطبيبَ في واحةِ السماني لم يسلمْ من انتقادِه.. فقد قال عنه إنه ينقصُهُ الطموحُ إلى حياةٍ أفضلَ.. حتى مدينتَه لا يهمُّهُ أمرَها.. إنما يهمُّهُ أن يثبتَ تفوقَهُ على الناسِ جميعًا.. لقد تعلمتُ منه أشياءَ كثيرة.. لكن أهمَّ ما تعلمتُهُ أن المرءَ قد يكونُ شديدَ الذكاءِ وغزيرَ العلمِ، لكنه ليسَ متميزًا على الإطلاقِ».

في الصباحِ الباكرِ.. رحلَ عمرانُ مع القافلة المسافرة إلى واحةِ السماني في الجنوبِ الغربي.. فوصلَها بعد يومين.



نزَل عمرانُ في الساحةِ الرئيسيةِ في وقتِ الظهيرة.. وسار بين الدُّور والبساتين حتى وصلَ إلى دارِ السيدِ مهدي.. فوجدَ بابَهُ مفتوحًا، ووجدَ صبيةً يلعبون في ساحتِه.. تبرَّعَ أحدُهُم أن يصحبَهُ إلى المستوصفِ.. فسارَ، وسارَ معه عمرانُ، ومن ورائهما سارَ باقي الصبيةِ، يسألونَهُ إن كان صديقًا أو قريبًا «للعمِّ مهدي».

في ساحة المستوصف، جلسَ السيدُ مهدي يحتضنُ طفلاً صغيرًا، ويتحدثُ إلى رجلٍ واقفٍ أمامَهُ.. بينما تَعَلَّقَ في عُنُقِه طفلٌ ثانٍ، طالبًا منه أن يصنعَ له طائرةً ورقيةً.

تصايَحَ الصبيةُ: «يا عمي مهدي.. ضيفٌ غريبٌ يسألُ عنك».

هبَّ السيدُ مهدي واقفًا، وهو يحملُ الطفلَ الصغيرَ، ومازالَ الآخرُ متعلقًا برقبتِه.. فحيا عمرانَ بودٍ وترحابٍ ظاهرين.. ثم دعاهُ للجلوسِ إلى جوارِه.

كانَ الرجلُ الواقفُ يشتكي أن أحدَ التجارِ اشترى منه خضرواتٍ، ولم يدفعْ له ثمنَها.. وأنه لا يملكُ مالاً لشراءِ الدواءِ المطلوبِ لابنه.

فقالَ السيدُ مهدي: «لا تحْملُ همًّا يا أبا عبد الحميد.. فسوفَ أتكفَّلُ أنا بالدواءِ حتى يدفَع لك ما عليه».. ثم أعطاهُ الطفلَ الصغيرَ، ووعَد الطفلَ الآخرَ

أن يصنعَ له طائرةً ورقيةً في يوم العطلَة، وصرفَ باقي الصبيةِ إلىَ بيوتِهم.. ثم التفتَ إلى عِمرانَ، فحياهُ ورحَّبَ بهِ مرةً أخرى.

سَلَّمَهُ عِمرانُ رسالةَ السيد فارس.. وأبلغَه تحيات الحكيم لُقمانَ، فقالَ: «إن الحكيمَ صديقي ومعلّمي.. ومعلِّمُ الواحةِ كُلِّها».. ثم تركَه جَالسًا في الساحةِ حتى ينتهي من عملِه.

بعدَ صلاةِ المغربِ، ذهبَ السيدُ مهدي، ومعه عِمرانُ، إلى دارِ التاجرِ، وحياهُ وهو واقفٌ. فردَّ التاجرُ التحيةَ باستعلاءٍ وقالَ: «اجلسْ يا سيد مهدي.. هل أتيتَ لِتُحَصِلَّ ثَمنَ الزيتونِ الذي ابْتَعْتُهُ منك؟».

ردَّ السيدُ مهدي: «كلا. وإنما أتيتُ لأُحَصِّلَ ثَمَنَ الخضرواتِ التي ابتعتَهَا من أبي عبد الحميد الأسبوعَ الماضي».. فاعتدلَ التاجرُ في جلستِه وهو يقولُ: «تفضلْ بالجلوسِ حتى أُحْضِرَ المبلغَ المطلوبَ».

قالَ السيدُ مهدي وهو ينصرفُ: «اعطِه لصاحبِه».. ثم غادرَ الدار بنفسِ الهدوءِ الذي دخلَ به.. وسمِعَ عِمرانُ التاجرَ يقولُ: «طبعًا.. طبعًا يا سيد مهدي.. سوف تصلُهُ نقودُهُ هذا المساءِ».

لحق عِمرانُ بالسيد مهدي وسألَه: «لماذا لم تطالبْهُ بحقِكَ أيضًا ما دام يهابُكَ ويطيعُكَ؟».

قالَ السيدُ مهدي: «إنه يهابُني ويطيعُني لأنني لم أطالبْهُ بحقي، وإنما طالبتُهُ بحقِ غيري فقط».

في ذلك المساءِ تعرَّفَ عِمرانُ على زوجةِ السيدِ مهدي وعلى أولادِه الثلاثةِ.. وأمضى الليلةَ، وباقي الأيامِ في مضيفةِ السيدِ مهدي.. وكان يرافقُهُ طولَ الوقتِ من الصباحِ إلى المساءِ، سواءً كان في المستوصفِ، أم كان يعودُ المرضى في بيوتِهم، أم كان في أي مكانٍ آخر. وكان إعجابُ عمران به وحبُّهُ له يزدادُ يومًا بعد يوم.. فقد كان رجلاً حسنَ الخلقِ متواضعًا، يحبُّهُ الصِّغارُ والكبارُ، والأغنياءُ والفُقراءُ، ولا يردُّ لأحدٍ طلبًا مادام في مقدرَتِه.



ذات يوم، كان السيدُ مهدي في طريقهِ إلى بيتهِ بعد يوم شاقٍّ في المستوصفِ، فاعترضَهُ رَجلٌ متجهِّمُ الوجهِ. يتكئُ على عصا سوداءَ طويلةٍ.. وصاحَ في وجهِهِ: «واللّه إنك منافقٌ. ولا تراعي اللّه في مِهَنتكَ.. فقد بعثْتُ إليكَ بالأمسِ لتفحصَ قدمي وتضمّدَ إصابَتِها، فلم تحضرْ.. ثم أرسلتُ إليكَ مرةً أخرى هذا الصباح، فلم تحضرْ.. ألا تعودُ إلا أصدقاءَكَ؟!».

قالَ السيدُ مهدي: «لم يبلغْني أنكَ مريضٌ.. وإلا لعدتُكَ دونَ أن ترسلَ في طلبي.. هيا بنا إلى المستوصفِ».

فانصرفَ الرجلُ وهو يلوِّحُ بعصاهُ غاضبًا ويقول: «تعودُ أصدقاءك في دورِهم وترفضُ عيادتي في داري!!.. لا واللّه، لن أذهبَ معكَ».

فتبعَهُ السيدُ مهدي قائلاً: «إذن.. أذهبُ أنا معكَ».. وتبعَهمَا عمرانُ متعجبًا.

وقفَ السيدُ مهدي يتحدَّثُ إلى الرجلِ على بابِ بيتِه، حتى سَكَنَ غضبُهُ وسَمَحَ له بالدخولِ.. ففحصَهُ، وَطهَّرَ جُرْحَهُ وضَمَّدَهُ، وشَرَحَ له ما يلزمَه من دواءٍ وغذاءٍ وراحةٍ.. ثم انصرفَ دون أن يشكرَهُ الرَّجلُ، أو يودِّعَهُ أحدٌ من أهلِ بيتِه.

في طريقِهمَا إلى البيتِ، سألَهُ عِمرانُ: «كيف تَصْحَبُهُ إلى دارِه، وتعالجُهُ.. بينما هو يكرهُكَ ويسيءُ إليكَ.. حتى إنه لم يَشْكُرُكَ؟!».

فوضعَ السيدُ مهدي يدَهُ على كَتِفِ عِمرانَ وقالَ له: «يا بني.. ألا يكفيه عذابًا أنه لا يُحبُّني ومع ذلك يحتاجُني.. وإذا مَرِضَ يأتيني بنفسِه... ألا يكفيني كرامةً ورحمةً من اللّه أنني في صحةٍ جيدةٍ، وعندي من العلمِ والقدرةِ ما يمكنُني من مسامَحتِه وخدمتِه؟!».

لم يتمالكْ عِمرانُ نفسَه مِن البكاءِ تأثرًا. فعانَقَ السيدَ مهدي وَقَبَّلَ رأسَهُ.. ثم انصرفَ إلى المضيفَةِ، وأخرجَ دفترَهُ وكتبَ فيه: «لم أرَ في حياتي كُلها رجلاً مثلَ السيدِ المهدي.. في كلِ دقيقةٍ أتعلَّمُ منه شيئًا جديدًا.. كأنه حكيمٌ آخر».

مرَّت الأيامُ، وانقضى شهرٌ على إقامةِ عِمرانَ في واحةِ السماني، وحانَ موعدُ عودتِه. فودَّعَ السيدَ مهدي وهو يتمنى ألا يفارقَهُ أبدًا، واعدًا أن يزورَهُ في العامِ المقبلِ. ثم غادَرَ الواحةَ مع القافلةِ المسافرةِ إلى الوادي.



في صباحِ أحدِ الأيامِ.. بينما كان الحكيمُ يستعدُّ للنزولِ إلى الوادي. سَمِعَ صوتَ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ.. ورأى عِمرانَ يصعدُ الجبلَ، قافزًا فوق الصخورِ بمهارتِه المعتادةِ، وقد لوحَتْهُ الشمسُ، وبدا أكبرَ وأنضجَ مما كان قبلَ سفرِه.

جلسَ الاثنانِ أمامَ الكوخِ، وأعَدَّ عِمرانُ الشايَ.. ثم وَضَعَ دفترَهُ أمامَهُ.. انطلقَ يقولُ: «لقد كانت إقامتي في واحةِ السماني هي الجزء المُمَيّز من رحلتي.

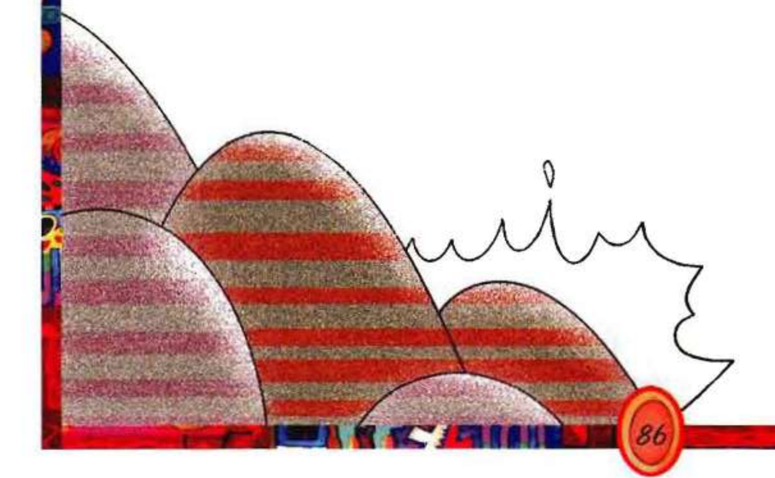
فهي واحةٌ جميلةٌ، بها ينابيعُ عديدةٌ، وبساتينُها الكثيرةُ تلطفُ من جوها».

قَدَّمَ له الحكيمُ كوبَ الشاي، فرشفَ منه رشفةً، ثم تابَعَ حديثَهُ: «أهلُ الواحةِ كلُّهم يعرفونَكَ يا عمي لُقمان، ويتمنون أن تزورَهم قريبًا.. هل تذكر السيد مهدي؟.. إنه يذكرك دائمًا، ويتمنى أن يراك».

توقَّفَ عِمرانُ عن الكلام حتى انتهى من الفطيرَةِ التي قدَّمها له الحكيمُ، ثم عادَ يقولُ: «تصور يا عمي لُقمان.. يُفَضِّلُ السيدُ مهدي أن ينادِيه النَّاسُ كما ينادون بعضَهم بعضًا.. أما الصغارُ فينادونَه عمي مهدي»..

أمسكَ عِمرانُ دفتَرَهُ وناولَه للحكيم وهو يقولُ بحماس: «تصور يا عمي..أنه لا يَضيقُ بالجهلةِ أو الأغبياءِ أبدًا، ولا يأنَفُ من المرضى أو الفقراء أبدًا، ويتحملُ المخطئين والمسيئين.. حتى الذين يسيئون إليه. ولما سألْتُهُ كيفَ اكتسبَ هذه المقدرة، قالَ لي: «إذا عرَفْتَ أنَّ ما أنت فيه من نعمةِ الصِّحةِ أو العقلِ أو الذَّكاءِ. إنما هي هبةٌ من اللّه.. كما أعطاها لكَ وَحَرم منها غيرَكَ.. يستطيعُ في أي وقت أن يحرمكَ منها، ويُعطيهَا لغيركَ... إذا عرفْتَ ذلك، وتذكرتَهُ دائمًا. فلن تبذُلَ جهدًا كبيرًا لتكونَ سمحًا أو متواضعًا».

أسند عِمرانُ ظهرَهُ إلى جدارِ الكوخِ وسرحَ بنظرِهِ بعيدًا.. ثم انتبَهَ، فنظَرَ إلى الحكيم وقد أشرَقَ وجهُهُ بالابتسامِ، وقالَ: «إنه رجل متميزٌ حقًا.. كأنه حكيمٌ آخر.. لَيتني أكونُ مثلَهُ».




وضّاح



وضّاح

مرَّ الصيفُ.. وحانَ موعدُ جمعِ القطنِ.

كان أهلُ الوادي يجتمعون في هذا الموسمِ من كلِّ عام.. فَتُعَطَّلُ المدارسُ والمعاهدُ، ويعودُ المسافرون من أسفارِهم، ويلتقي الأهلُ والأصدقاءُ.. فيتعاونون في جمعِ القطنِ.

استأذنَ عِمرانُ من معلمِه لُقمانَ، ونَزَلَ إلى الوادي لمساعدةِ والديهِ وأهلِ قريتِهِ في جني محصولِهِم.. وليلتقي بأقاربِهِ وأصدقائِهِ.. خصوصًا وضاح ابن خالته.

كان وضاحٌ يعيشُ، بعد وفاةِ أبيه، في مدينةِ العُمْرانيَّة، ويدرسُ في معهدِها الزراعي. وكان معروفًا بجدِّهِ وإخلاصِه في أمورِ حياتِه كلِّها.. فقد كان يرعى أمَّهُ وأختَيْه، ويجتهدُ في دروسِه، ولا يقولُ ولا يعملُ إلا ما يراهُ نافعًا له في دينِه ودنياه.. فأَطْلَقَ عليه أصدقاؤه اسمَ «وضاح النافع».

أمضى عِمرانُ ووضاحٌ أيامًا سعيدةً.. فقد كانا يقضيان نهارَهما في العملِ في الحقولِ. ويتسامران في المساءِ فوقَ سطحِ الدارِ.. فيحكي وضاحٌ لابن خالته عما درسَهُ في المعهدِ الزراعي، ويتمنى أن يَنْفَعَ به أهلَ الوادي، وعما تعلمَهُ من أهلِ الوادي، وينوي أن ينتفعَ به في دراستِهِ.. ويروي له عِمرانُ عن حياتِهِ مع الحكيمِ على الجبلِ، وصحبتِه له في أسفارِه.

انتهى الموسمُ.. وَنَزَلَ الحكيمُ ليصحبَ عِمرانَ في رحلةٍ إلى الجنوبِ. فاستأذَنَهُ وضاحٌ أن يرافقَهُما حتى بيتِهِ في مدينةِ العُمْرانيةِ.. فقد كان في شوقٍ لقضاءِ بعضِ الوقتِ مع الحكيمِ.. ليتعلمَ منه من الحكمةِ ما ينفعُهُ.

باتَ وضاحٌ تلك الليلةَ مع الحكيمِ وعِمرانَ خارجَ القريةِ.. في حجرةِ عمٍّ جابالله حارسِ «شونةِ تخزينِ القطنِ». وفي الفجرِ، قامَ وضاحٌ بهمةٍ ونشاط،

فطوى فراشَهُ، ونَظَّفَ الحجرةَ، وملأ آنيةَ الشربِ ماءً من المضخَّةِ، وساعَدَ عمَّ جاب‌الله في جمعِ الحطبِ وإشعالِ الموقدِ.

أعدَّ عمُّ جاب‌الله لإفطارهم شايًا وخبزًا مغموسًا في الزيْت. فجلسَ الحكيمُ وعِمرانُ يأكلان معه.. أما وَضّاحُ فاعتذرَ قائلاً: «إنه طعامٌ غَيرُ صحي».

بعد الإفطارِ، بدأ الحكيمُ وعِمرانُ ووضاحُ رحلتَهم سيرًا على الأقدام إلى ضيْعةِ «بني عزَّام».. وفي الطريقِ همسَ عِمرانُ لوضاحِ: «ليتَكَ كنتَ أكثرَ لطفًا مع عم جاب الله».

قالَ وضاحٌ، متعجبًا من كلامِ ابنِ خالتِه: «ولكني كنتُ لطيفًا.. فقد ساعدتُهُ في أعمالِه!».

قال عِمرانُ: «ألم يكن بإمكانكَ الاعتذارُ عن الطعامِ دون أن تذكرَ السببَ؟!».

قال وضاحٌ وقد ازدادَ عجبُهُ: «ولكني أردتُ أن أنصحَهُ لأنفعَهُ.. حتى لا يأكلَ طعامًا يضُرُّهُ».

قال عمران بضيق: «ربما كان لا يملك مالاً يشتري به طعامًا أفضل من ذلك» وقبل أن يرد وضاح..كان الحكيم قد اقترب منهما، فانقطعَ الحديثُ بين الصديقين.

وصَل الحكيمُ وصاحباه إلى الدرْب المؤدي إلى ضيعةِ «بني عزام».. فساروا بينَ الحقولِ، حتى وصلوا إلى الضيعةِ قبيلَ صلاةِ العشاءِ، واتجهوا مباشرةً إلى المسجدِ.

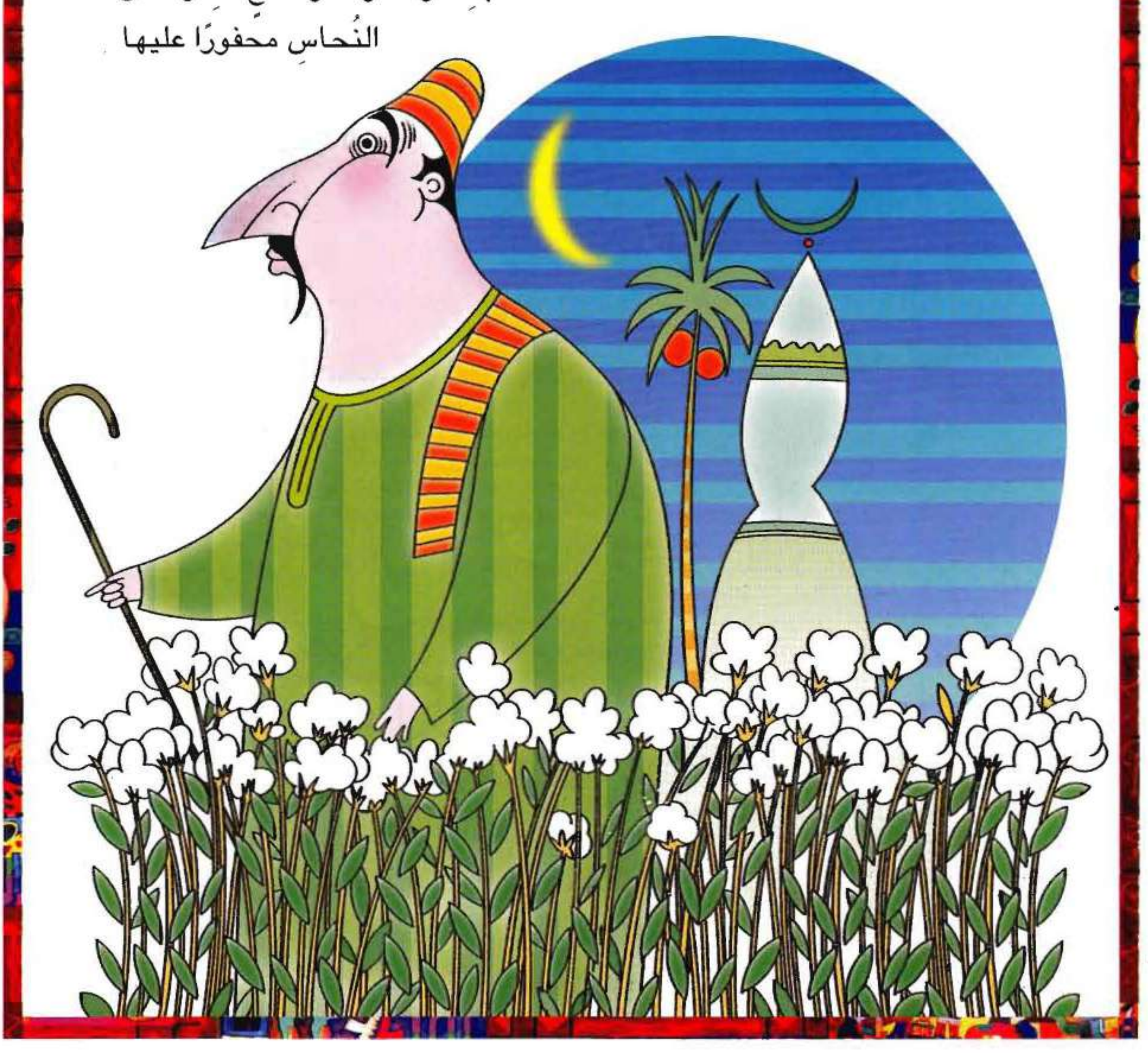
رحَّبَ بهم إمامُ المسجدِ، واستضافَهم في دارِه.. وفي الصباحِ، تجمعَ أهلُ الضيعةِ في ساحةِ المسجدِ للترحيبِ بالحكيم وصاحبَيْه، وأخذوا يتحدثون عن أحوالِهم وأحوالِ ضيعتِهم.. فتَدَخَّلَ وضاحٌ في الحديثِ قائلاً: «لاحظتُ أنكم قد جمعتُم أعوادَ شجيراتِ القطنِ الجافةِ في أكوامٍ، كأنكم تنوون حرقَها، ورأيتُ حقولاً جرداءَ غيرَ مُعَدَّةٍ للزراعةِ».

فأخبرَهُ إمامُ المسجدِ أن أرضَ الضيعةِ فقيرةٌ وغيرُ خصبةٍ، فلا تحتملُ زراعةَ محصولَيْنِ في العامِ الواحدِ. وأهلُ الضيعةِ فقراءُ، لا يملكونَ عددًا من البهائمِ يكفي لتسميدِ الأرضِ كلِّها.. لذلك يتركون بعضَ الحقولِ دونَ زراعةٍ في موسمِ الشتاءِ، حتى تصلحَ لزراعةِ القطنِ في الموسمِ التالي.

فقالَ وضاحٌ: «إذا غطيتُم شجيراتِ القطنِ الجافةَ بسمادِ البهائم، وتركتموها وقتًا كافيًا.. فستتحولُ كلُّها إلى أسمدةٍ تفيدُ الأرضَ، وتمكنُكُم من زرعِها مرةً أخرى في موسم الشتاء».

بدا على الإمامِ وأهلِ الضيعةِ التشككُ في نصيحةِ وضاح. فأكَّدَ لهم الحكيمُ ثِقَتَهُ في عِلْمِهِ وكفاءتِه.. فقامَ الناسُ في اليوم نفسِه، وفي الأيام التالية، وقامَ معهم وضاحٌ وعِمرانُ، فحفروا حفرة وضعوا فيها حطب القطنَ وغطوه بالسماد.. وراحوا يحرثون الأرضَ تمهيدًا لزرعها.

مرَّ أسبوعٌ، وحانَ موعدُ الرحيلِ.. فتجمَّعَ أهلُ الضيعةِ مرةً أخرى في ساحةِ المسجدِ، وقدَّموا لوضاحٍ قِدْرًا من النُحاسِ محفورًا عليها



اسمُ الضيعةِ ، تعبيرًا عن امتنانهم وتقديرهم.

عند الرحيل، رأى عمرانُ هديةَ أهلِ الضيعةِ مازالت في مكانها على حافة النافذة، فذَكَّرَ بها وضاحًا.. فقالَ: «إنها لا تَنْفَعُني.. كما أنها ثقيلةُ الوزنِ، وستكونُ عبئًا عليّ في سيْري».

غادرَ وضاحٌ الحجرةَ. فوضعَ عمرانُ القدرَ في خُرْجِهِ هو، وخَرَجَ وراءَه.. وسار الفَتَيَان مع الحكيم بينَ الحقولِ إلى الطريق الرئيسي.

كان الحكيمُ يمشي في المقدمةِ.. ومن ورائِهِ يمشي عمرانُ مُتَجَهِّمًا، لا يلتفتُ لابنِ خالتِه ولا يحادثُهُ. أما وضاحٌ، فمشى إلى جوارِهِ بهدوءٍ واسترخاء.

بعد فترةٍ، لاحظَ وضاحٌ صمتَ عمرانَ وتجهُّمَه، فسألَهُ: «مالكَ يا عمرانُ؟.. هل تعاني من ألم؟».

فانْدَفَعَ عمرانُ يقولُ: «لقد أَحَبَّكَ أهلُ الضيعةِ، وقدَّموا لك هديةً دليلَ حبِّهم واحترامِهم.. لكنكَ رفضتَها، ولم تبالِ بمشاعرِهم»!!

فوجئَ وضاحٌ بثورةِ عمرانَ، فردَّ مُدافعًا: «ولكني لم أرفُضْها، وإنما تركتُها لهم.. لأنها لا تَنْفَعُني».

فصاحَ عمرانُ غاضبًا: «ماذا أصابك يا وضاحُ؟!.. ألا تهتَمُّ بالناسِ؟!.. ألا تهتمُّ إلا بما ينفعُكَ؟!».

كان وضاحٌ ينظرُ لابنِ خالتِهِ بحيْرةٍ، ولا يدري كيفَ يُخَفِّفُ من غَضَبِهِ.. فقال مُتَلَطفًا: «ولكني أهتمُّ بما ينفعُ الناسَ أيضًا».

فردَ عمرانُ بنفادِ صبر: «واللّه لقد صَدَقَ أصدقاؤك الذين أسموْك وضاح النافع. ألا تعرفُ يا أخي أَن مجاملةَ الناسِ ومراعاةَ شعورِهِم تنفعُهُم أيضًا؟!».

عندئذٍ، تدخلَ الحكيمُ قائلاً: «ما رأيُكُما لو ارتحنا قليلاً؟».

جلسَ الثلاثةُ في ظلِّ شجرةِ توت على جانبِ الطريقِ.. وقدمَ الحكيمُ للفتييَنْ ماءً، فشربا.. ثم قالَ لعمرانَ: «إذا أردتَ أن تعَلِّمَ إنسانًا الرقةَ في المعاملةِ.. فعاملْهُ أنتَ برقة».

أحنى عمرانُ رأسَهُ، وغَمْغَمَ بالاعتذارِ لوضاحٍ، الذي كان لا يزالُ متعجبًا من ثورةِ ابنِ خالتِه.

أخرَجَ الحكيمُ من خُرْجِه ميزانًا صغيرًا ذا كفتين، ووضعَهُ على الأرض.. ثم قال لوضاح: «لنعتبرْ هذا ميزانَ تصرفاتِ المرءِ مع النّاس».. وأشارَ لإحدى الكِفَّتَيْنِ وقالَ: «هذه كفةُ الأعمالِ التي تَخْدِمُ الناسَ وتنفعُهم»..

وأشار إلى الكفةِ الأخرى قائلاً: «وهذه كفةُ المعاملاتِ التي تُسعد الناسَ وترضيهم.. مثلَ الكلماتِ الطيبةِ، والمجاملات الرقيقة».

تَنَهَّدَ وَضاحٌ بارتياحٍ.. فقد جاءتْهُ الفرصةُ أخيرًا ليتلقى درسًا في الحكمةِ.. فجلسَ يتأملُ الميزانَ بجِدٍّ واهتمام.

وضعَ الحكيمُ حَبَّتَيْنِ من الفولِ الجّافِّ في كفةِ الأعمالِ، فمالَتْ إلى أسفل، وقالَ: «هذا ما قدمتَه من أعمالٍ نافعةٍ للعمِّ جاباللّه، ولأهلِ ضيعةِ بني عزام.. فماذا قدمتَ من معاملاتٍ تُسْعِدُهُم وُتْدخِلُ البهجةَ على قلوبهم لتتوَازنَ كفتا الميزانِ؟»».

نظرَ وضاحٌ لكفةِ المعاملاتِ بعضَ الوقتِ ثم قال: «لا أذكُرُ شيئًا.. والتفتَ إلى ابنِ خالته مُسْتَنْجِدًا، فقالَ عمرانُ ضاحكًا: «أنا أيضًا، لا أذكرُ شيئًا».

قامَ الثلاثةُ ليتابعوا طريقَهم.. فمشى ابنا الخالةِ إلى جوارِ الحكيم وقد زالَ ما كان بينَهما من خلاف، فراحا يتبادلان الحديثَ، حتى الْتَقَوْا بتاجرٍ مسافر بعربته التي تجرُّها أربعةٌ خيولٍ، فحملَتهم العربةُ إلى مدينةِ العمرانيةِ.. وهناك، وَدَّعَ الحكيمُ وعمرانُ وضاحًا، وتابعا سفرهما إلى الجنوب.

في اليوم الأولِ للدراسةِ في المعهدِ، عرفَ وضاحٌ أن الأستاذَ شهابًا، الذي يعلِّمُهمُ العنَايةَ بالبساتين، قد أصيبَ في حادثٍ، ويرقُدُ في المستشفى العام. فَجَمَعَ ثلاثةً من زملائه وقالَ لهم: «أرى أن نقومَ بعملٍ نُعَبِّرُ به عن تقديرنا لمعلمنا، واعترافنا بفضله علينا».. فاتفقوا أن يقوموا، في أثناء غيابه بما يُمكنُهمُ من أعماله نيابةً عنه.. وقسموا العملَ بينَهم؛ فكانوا يتناوبون العنايةَ بالبستانِ الملحقِ بالمعهد، ومساعدةَ زملائهم في دروسِهم، ورعايةَ أسرة أستاذِهم وقضاءَ مصالحِها.. حتى إن وضاحًا كان يصحبُ ابنَه الصغيرَ كلَّ صباحٍ إلى مدرسته.

مرَّ أسبوعان، وَسمَحَ الطبيبُ للأستاذِ شهاب باستقبالِ زائريه.. فاتَّفَقَ زملاءُ وضاحٍ على عيادَتِه عصرَ ذلك اليوم.. لكن وضّاحًا اعتذر قائلاً: «أُفَضِّلُ قضاءَ ذلك الوقتِ في مراجعةِ دروسي».



صاحَ أحدُ زملائِه مستنكرًا: «أمضيتَ أسبوعَيْنِ كاملَيْنِ تقومُ بأعمالِ الأستاذِ شهابٍ بدلاً منه.. والآن ترفضُ عيادتَه!».

ردَّ وضاحٌ: «لقد كانت أعمالاً نافعةً.. أما عيادتي له، فلا نَفْعَ فيها».

عادَ وضاحٌ إلى بيتِه، وجلسَ إلى مكتبِه راضيًا مطمئنًا.. فقد أدى ما عليه من أعمالٍ نافعةٍ؛ والآن، حانَ وقتُ استذكارِ دروسِه.

بعد فترةٍ، رَفَعَ وضاحٌ رأسَهُ، فلمَحَ ميزانَ الحكيم في مكانِه على حافةِ النافذةِ.. فقَامَ، وَوَضَعَ حَبَّةَ فولٍ في كفةِ الأعمالِ، فمالَتْ إلى أسفلَ.. ووَقَفَ يتأملُها، ويفكرُ في معاملةٍ رقيقةٍ يَعْدِلُ بها كفتي الميزانِ.. وأخذ يرددُ قولَ الحكيم: «معاملةٌ تُسْعِدُ الناسَ، وُتدْخِلُ البهجةَ إلى قلوبِهم..».

وفَجأةً.. ابتسمَ، كأنه اكتشفَ شيئًا مهمًا.. فتركَ غرفتَهُ، وأسرعَ خارجًا...

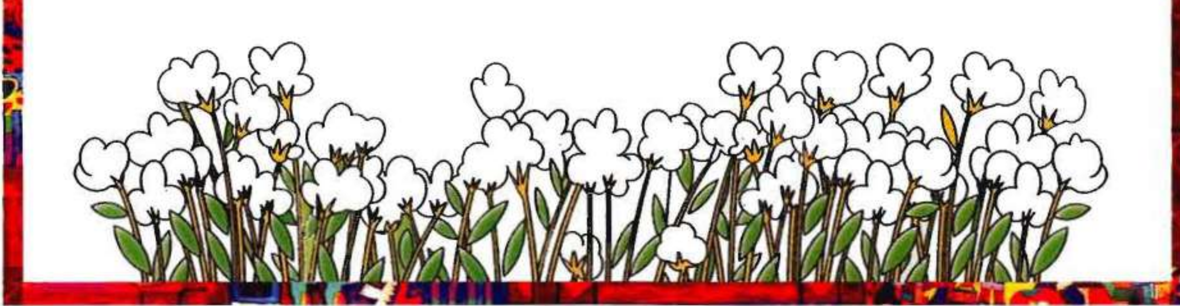
كانَ الطلبةُ مجتمعين في المستشفى.. فرأَوْا زميلَهُم وضاحًا يقتربُ من سريرِ الأستاذِ شهابٍ.. ويقدمُ له باقةً من الأزهارِ البيضاءِ.. وهو يبتسمُ بخجلٍ، ويقولُ: «حمدًا اللهِ على سلامتِكَ».



مرت الشهورُ، وانتهى العامُ الدراسيُّ.. وأرسلَ وضاحٌ رسالةً إلى عِمرانَ، يُخْبِرُهُ فيها أنه نَجحَ في امتحاناتِ المعهدِ.. وأنه ينتظرُ، بفارغِ الصبرِ، لقاءَهُ في موسمِ جمعِ القطنِ.. ويبعثُ بسلامِهِ وتحياتِهِ إلى الحكيم لُقمانَ، ويحكي له عن محاولاتِهِ في ضبطِ كفتي الميزانِ.

وفي نهايةِ الرسالةِ، كتبَ ملحوظةً:

«لقد انمحى لقبُ «وضاح النافع» من حياتي إلى غير رجعةٍ..
فقد أصبح زملائي ينادونني باسم «وضاح الميزان».




سلّامة



سلَّامة

وقفت سلامةُ أمامَ دارِها، تحتضنُ دميةً من القشِّ على هيْئةِ جملٍ، وتنظُرُ نحوَ الحقولِ البعيدةِ. فرأتْ أباها قادمًا من أولِ الطريقِ، ومعه رجلانِ آخران.. فأطلَّتْ برأسِها داخلَ الدارِ، وقالت: «جهِّزي العَشاءَ يا أمي.. أبي قادمٌ ومعه ضيْفان».

اقترَب الأبُ وضيفاهُ، فتعرفَتْ سلَّامةُ عليهما، فعادَتْ تُطِلُّ برأسِها وتقولُ: «إنه عمي لُقمانُ ومعه عِمرانُ يا أمي».. ثم صعدتْ على المصطبةِ وراحتْ تقفزُ من الفَرَحِ وَتمُدُّ ذراعيْها.. حتى اقتربَ الرجالُ، فتعلقَتْ برقبةِ الحكيمِ.. فاحتضنَها وأجلسها إلى جوارِه على المصطبةِ.

كانت سلامةُ طفلةً في الخامسةِ من عمرِها. وكان أبوها - مرزوقٌ - يعملُ أجيرًا في أرضِ العمدةِ، مثلَ أغلبِ سكانِ الكفرِ. وكانت أمُّها - سعديةُ - تُرَبِي الدواجنَ وتخبزُ الفطائرَ لتبيعَها في سوقِ الثلاثاءِ من كلِّ أسبوعٍ.. وكانت سلامةُ تخافُ من كلِّ شيءٍ حولَها، حتى إنها لم تكنْ تغادرُ دارَها إلا ممسكةً بطَرَفِ ثوبِ أمِّها، وترفضُ الذهابَ إلى الكُتَّابِ خوفًا من الصِّبيةِ الآخرين.

قالت سلامةُ للحكيمِ: «يا عمي لُقمانُ.. هل من الممكن أن يُصادقَ الإنسانُ أسدًا؟».

قال الحكيمُ: «يقولُ الناسُ إنه من الممكنِ.. ويحكون أن رجلاً هَرَبَ من ظلمِ أحدِ الحكامِ، واختبأ في كهفٍ، وهناك التقى أسدًا يعاني من شوكةٍ حادةٍ انغرست في قدمه، فاستخرجَ الرجلُ الشوكَةَ، وأنقذَ الأسدَ من آلامِه. فأصبح صديقًا له.. ثم قَبَضَ رجالُ الحاكمِ على الرجلِ وأجبروهُ على مصارعةِ أسدٍ جائعٍ.. لكن الأسدَ تَعَرَّفَ عليه ورفضَ مصارعتَهُ.. وأنقذَهُ من القومِ الظالمين».

برقَتْ عينا سلامةَ من الإثارةِ، وقالت: «يا عمي لُقمان.. هل رأيتَ أسدًا؟».

قال الحكيمُ وهو يراقبُ اهتمامَ عِمرانَ بالحديثِ: «نعم.. رأيتُ أسدًا يشربُ

من بِرْكَةِ ماءٍ.. ورآه معي عِمرانُ، وسَمِعَ صوتَ زئيرِه، وشاهدَه يصيدُ فريستَهُ ويأكُلُها».

التفتت سلامةُ إلى عِمرانَ وسألَتْهُ: «هل كانَ أسدًا ضخمًا؟.. هل كانت له لِبْدَةٌ حولَ رأسه؟.. هل كان لونُهُ لونَ نباتِ الغابِ الجافِّ؟».

ضحِكَ عِمرانُ وقالَ: «نعم، لقد كان كذلك.. هل رأيتِ أنتِ أسدًا؟!».

قالت سلامةُ: «نعم.. رأيتُ صورتَهُ في كتابِ ابن عمي. كان أسدًا كبيرًا محبوسًا في قفص. لكني لم أسمعْ صوتَهُ.. كيف كانَ صوتُهُ يا عمرانُ؟».

قال عِمرانُ: كان صوتُهُ عاليًا رهيبًا.. كان إذا زَأَرَ، تردَّدَ صوتُهُ في الفضاءِ، وهَرَبَت الحيواناتُ والطيورُ خوفًا منه».

قالت سلامةُ وهي تتطلَّعُ إلى الأفقِ: «ليتني أصادقُ أسدًا.. أريد أسدًا حرًّا، لا يكون محبوسًا في قفص.. أسدًا يشرب من بركة الماء، ويصيدُ طعامَه بنفْسِه.. يكونُ صديقي، ويحرسُني».

أسندت سلامةُ ظهرَهَا إلى الجدارِ، وهي ما زالت تَحْتَضِنُ دميتَها الجملَ، وراحت تتخيلُ صديقَها الأسدَ..

فقال عِمرانُ: «تريدين أسدًا يكون صديقَك، ويذهبُ معكِ إلى الكُتّاب؟».

هزت سلامةُ رأسَها موافقةً. فأكْمَلَ عِمْرانُ: «ويحمِلُكِ على ظهرِه، ويسيرُ بك في طرقاتِ الكفرِ؟».

أغمضتْ سلامةُ عينَيْها، وابتسمَتْ بسعادةٍ وهي ترى نفسَها على ظهرِ الأسدِ. فتابع عِمرانُ: «ويذهبُ معكِ إلى الحقلِ حين تحملين الطعامَ لأبيك؟».

فَغَمْغَمَتْ وهي تغالبُ النعاسَ: «ولن أضلَّ الطريقَ.. فالأسدُ يعرفُ كلَّ الطرقاتِ». فقال عِمرانُ: «وفي المساءِ، تقفين بشجاعةٍ على أولِ الطريقِ في انتظارِ عودة أبيك.. والأسدُ معَك يحرسُك؟».

لم تَرُدّ سلامةُ، فقد غلبَها النُّعاسُ. فأرقَدَها عِمرانُ إلى جوارِه، وغطاها بشالِه الصوفي، وهو يقولُ: «وتحملين سلةَ البيضِ وتذهبين مع أمِّكِ إلى سوقِ الثلاثاءِ.. ولن تخافي من العمدَةِ أو من رجالِهِ؟».

خرجَ مرزوقٌ من الدارِ حاملاً صينيةَ العَشاء.. فوجدَ سلامةَ مستغرقةً في نومِها، وعِمرانَ جالسًا إلى جوارِها يقولُ لها: «وهو أسدٌ حرٌّ لا يقبلُ طعامًا إلا من أصدقائه؟».

نامتْ سلامةُ ليلَها في سلام، لا يُفْزِعُها عواءُ الذئابِ أو نقيقُ الضفادع.. ورأت في نومِها أنها استيقظَتْ في الصباحِ وفتحَت البابَ، فوجدت أسدًا كبيرًا واقفًا أمامها.. كان لوْنُه كلون نباتِ الغاب، وله لِبْدَةٌ حولَ رأسه. مدَّ الأسدُ قدمَه اليُمنى. فوجدَتْ سلامةُ شوكةً حادةً قد انْغَرَسَتْ فيها.. فجلسَتْ على الأرضِ، وأمسكَتْ الشَّوْكَةَ بأسنانِها، وانتزعَتْها.. فرأَتْهُ ينظرُ إليها بِعَيْنَيْهِ الصفراوَيْنِ كأنَّهُ يشكُرُها.

حملتْ سلامةُ خُرْجَها القماشي.. وحملَها الأسدُ على ظهرِه، وسارَ بها في طرقاتِ الكفرِ إلى الكُتَّابِ.

في الكُتَّابِ، لم يجرؤ أحدٌ من الصبيةِ على مضايقةِ سلامةَ، فقد كان الأسدُ يجلسُ إلى جوارِها،

ويفتحُ فمَهُ الكبيرَ، فتبدو أنيابُه الحادةُ القويةُ.. فلم يقترِبْ منهما أحدٌ.

في وقتِ الغداء، جلستْ سلامةُ مع الأسدِ في ظلِّ شجرةِ الصفصافِ، وتقاسما الفطيرةَ التي خبزَتْها أمُّها للأسدِ.. وتقدمَ الصبيةُ بوَجلٍ، عارضِينَ على الأسدِ أن يشارِكَهمُ طعامَهم.. فزَمْجَرَ زمجرةً عاليةً، فابتعدَ الصبيةُ في الحالِ.. فضحكَتْ سلامةُ بفخرٍ واعتزازٍ.

حانَ وقتُ العودةِ، فسارت سلامةُ إلى جوارِ الأسدِ وهي تحتضنُ رأسَهُ بإحدى يديْها، وتحْملُ خُرجَها باليدِ الأخرى.. وفي الطريقِ، رأت عسافَ ابنَ العمدةِ يركضُ نحوَها وهو يصيحُ صيحاتٍ عاليةً.

التصقَتْ سلامةُ بالأسد، واقتربَ منها عسافُ، وأمسكَ بالخُرجِ يحاولُ انتزاعَهُ من يدِها.. فالتفتَ إليه الأسدُ وفَتَحَ فَمَهُ الكبيرَ.. فتسمَّرَ عسافٌ في مكانِه من الخوف، لكنه لم يترك الخُرجَ.

زأرَ الأسدُ زئيرًا عاليًا.. فارتجت الأرضُ، واهتزت فروعُ الأشجارِ، وطارت الطيورُ.. وهربَ الصبيةُ كلُّهم.. والأسدُ ما زال يزأرُ ويزأرُ.. وفجأةً، انفجَرَ عسافٌ في البكاءِ، وانطلقَ يجري وهو يبكي ويصيحُ من الرعبِ، وظلَّ يجري ويجري، حتى وصلَ إلى دارِهُ، فدخلَها وأغلقَ البابَ وراءَهُ.

نَظَرَ الأسدُ لسلامةَ وَفَتَحَ فَمَهُ كأنه يبتسمُ. فأحاطَتْهُ بذراعَيْها وهي تضحكُ وتتعجبُ من نفسِها، كيف تخافُ من صبيٍّ ضعيفٍ مثْل عساف؟!.. وظلَّتْ تضحكُ وتضحكُ، ويضحكُ الأسدُ معها.. حتى استيقظَتْ على صوتِ أذانِ الفجرِ.

في الصباحِ، وقفَتْ سلامةُ تشربُ الحليبَ، وتراقبُ أمَّها وهي تطعمُ الدجاجَ، وفجأةً قالَتْ لَها: «أمي.. أريدُ أن أذهبَ إلى الكُتّابِ».

منذ ذلكَ اليوم، تغير حالُ سلامةَ.. وأصبحت تذهبُ إلى الكُتّابِ، وتشاركُ الصبيةَ طعامَهم وألعابَهم.. وكلما حاولَ عسافُ إخافتَها، نظرَتْ إليه بثباتٍ.. فيتراجعُ في الحالِ.

في يوم الثلاثاءِ، جلست سعديةُ في السوقِ، ووضعَتْ أمامَها قفصَ دواجنِها، وجلسَتْ سلامةُ إلى جوارِها ممسكةً سلةَ البيضِ، تراقبُ البيعَ والشراءَ، دونَ أن تُمسكَ طَرَفَ ثوبِ أمِها.

وفجأةً.. خفتَت الأصواتُ، واتجهت الأنظارُ إلى الطريقِ العام.. فقد أقبلَ العمدةُ على فرسه، وإلى جواره ابنُهُ عسافٌ راكبًا مُهرًا صغيرًا، ومنَ حولهما سارَ حرسُ العمدةِ ورجالُه.. فاستعدَّ أهلُ الكفرِ لموجَةٍ جديدةٍ من البطشِ والظلم.

كان العمدةُ يُشيرُ بعصاه إلى ما يعجبُه، فيتقدَّمُ الحرسُ ويحملون ما أشارَ إليهِ دونَ أن يدفعوا ثمنَهُ.. وكانت الناسُ تَقفُ ساكتةً لا تعترضُ ولا تحمي بضائعَها خوفًا من بطشِ العمدةِ ورجالِه. اقتربَ العمدةُ من سلامةَ وأمِّها، وأشارَ إلى ديكٍ روميٍّ كبيرٍ، فتقدمَ أحدُ الحرسِ وحملَهُ.

رأت سلامةُ أن أمَّها لم تحركْ ساكنًا.. فَهَبَّتْ واقفةً، وقالت للعمدةِ: «ادفعْ ثمنَ الديكِ قبلَ أن يأخُذَهُ رجالُك»!

نظرَ إليها العمدةُ باحتقارٍ، ثمَّ ركَلَ الهواءَ باتجاهِها.. فاحتضَنَتْها أمُّها لتحميَها من الأذى.. لكن سلامةَ صاحَتْ: «ألا تخجلُ من نفسِكَ.. أن تَرْكُلَ طفلةً صغيرةً؟!».

تجاهَلَها العمدةُ وسارَ في طريقِه.. وسارَ وراءَهُ ابْنُه ورجالُهُ، بعد أن داسَ أحدُهُم سلةَ البيضِ فَحَطمَها وكسّرَ البيضَ كلَّه.

انفلَتتْ سلامةُ من أمِّها ووقفَتْ تصيحُ في الناس: «لا تخافوا منه.. إنه ضعيفٌ مثلَ ابنِه عساف.. إذا زأرتُم عاليًا، فسوف يجري باكيًا إلى دارِه»..

لكن أحدًا لم يلتفت إليها أو يتحركْ من مكانِه.

في تلك الليلةِ، باتَ أهلُ الكفرِ يشعرون بالألم من ظلم العمدةِ وجبروتِه، ممزوجًا بالخجلِ من ضعفِهم واستكانَتِهم، بعدَ أن رأَوْا سلامةَ وسمعوها في السوقِ.. وفي صباحِ اليوم التالي، اتفقوا على أن يرسلوا وفدًا منهم إلى الجبلِ الشرقي لاستشارةِ الحكيمِ لُقمانَ.



قال الحكيمُ: «أرى أن تسألوا سلامةَ كيفَ اكتسبت الجرأةَ على



مواجهة العمدة..

واسألوها لماذا تركها العمدةُ وشأنَها عندما تَحدَّتْهُ ولم تَخَفْ منه».

عاد الوفدُ إلى الكفرِ، يحاولون اكتشافَ سرِ شجاعةِ سلامةَ بعد أن كانت معروفةً بضعفها وانطوائها.

قالت سلامةُ ببساطةٍ: «لأن لي صديقًا، أسدًا كبيرًا.. أنقذْتُه من شوكة كانت مغروسةً في قدمِه.. سوف يَهُبُّ لنجدتي إذا تعرضْتُ للخطرِ.. والعمدةُ وابنُهُ عسافٌ يعرفان ذلك.. ويخافانِ من الأسدِ.. بل إنهما يخافان من صوت الزئيرِ.. فإذا لم تخافوا من العمدةِ، وزَأَرْتُم بصوتٍ عالٍ، فسوف يخافُ هو منكم».

مرت الأيام، وخرجَ العمدةُ ذات يوم يتفقدُ أحوالَ أرضِه.. فسارَ بين الحقولِ، راكبًا فرسَهُ، وسارَ وراءَه رجالُهُ وحرسُهُ على أقدامِهم. فرأى جماعةً من المزارعين ينامون تحتَ مظلة من القشِّ.. فناداهم؛ فهبُّوا واقفينِ احترامًا وخوفًا.. فصاحَ بهم: «يالكم من كُسالى.. تنامون وتهملون عَمَلَكُم؟!».

وقف المزارعون منكسين رؤوسَهم، يتحملون إهاناتِ العمدةِ في صمت.. وفجأةً، تذكَّرَ مرزوقٌ قصة ابنتِهِ سلامةَ مع الأسدِ. فاستجمعَ شجاعتَهُ وقالَ: «لقد عَملْنا منذُ صلاةِ الفجرِ.. وحانَ الآنَ وقتُ راحَتِنا».

بُهِتَ العمدةُ من ردِّ مرزوقٍ، فصاحَ به: «كيف بَلَغَتْ بكَ الجرأةُ أن تجاوبَني؟!».

فردَّ مرزوقٌ، وقد فوجئ هو الآخر بالشجاعةِ التي اكتسبَها: «أنتَ سألتَنا.. وأنا أجبتُك».

زادَ غضبُ العمدةِ، لكنه لم يبطشْ بمرزوقٍ، وإنما ضَرَبَ فرسَهُ بعصاهُ، واستدارَ عائدًا إلى الكفرِ.

أما رجالُه، فاندفعوا يحطمون بأقدامِهم وعصيِّهم آنيةَ الأكلِ والشربِ، ويدوسون الطعامَ، ويهدمون مظلةَ القشِّ.. ثم انطلقوا مسرعين ليلحقوا بعمدتِهم.

بعد فترةٍ، استردَّ المزارعون وعيَهُم، فقال أحدُهُم: «يبدو أن ردَّ مرزوقٍ على العمدةِ قد أخافَهُ، فقد غادَرنا غاضبًا دون أن يبطش بنا».

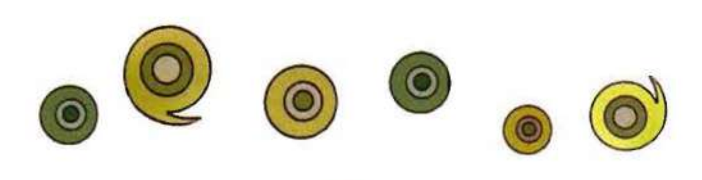
فقال آخر: «وَحَطَّمَ رجالُه أدواتِنا دونَ أن يتعرضوا لنا».

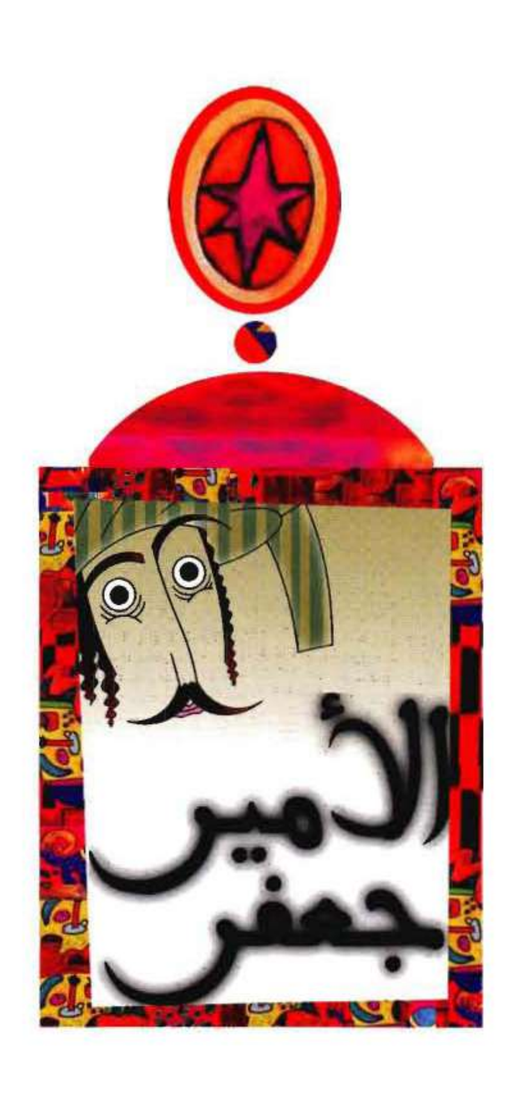
فقالَ ثالثٌ: «لو أننا دافعنا عن أدواتِنا، لانْسحبوا دون أن يدمروها».

فقالَ مرزوقٌ: «لقد كانت ابنتي سلامةُ على حقٍّ».



صارَ أهلُ الكفرِ يتناقلون قصةَ سلامةَ، ويرددونها دائمًا ليستمدوا منها القدرةَ على الوقوفِ في وجهِ العمدةِ.. وبالتدريجِ، اكتسبوا قوةً وجرأةً على مواجهةِ بطشِهِ وجبروتِه.. حتى اشتهروا بين أَهلِ الوادي بحرصِهم على كرامَتِهم، ورفضِهِم الاستسلامَ للظلمِ والجَوْرِ.. ومازال أهل الكفر يروون قصة سلامة إلى اليوم.




الأمير
جعفر

الأمير جعفر

كان الحكيمُ لُقمان وتلميذه عِمران يهبطان الجبل في طريقِهما إلى شمالِ الوادي.. عندما رَأيَا فتًى مقبلاً من بعيدٍ ينادي «يا عمي لُقمان!... يا عمي لُقمان!»

اقتربَ الفتى.. وأقبلَ يسلِّمُ على الحكيم ويحتضنُهُ بلهفةٍ وشوقٍ.. ويادلَه الحكيمُ السلامَ بودٍّ ظاهرٍ، ثم قدّمَه إلى عِمرانَ قائلًا: «إنه الأميرُ جعفر.. من النعمانيةِ».

قالَ جعفرُ: «لقد كنتُ تلميذًا لعمي لُقمانَ.. وعشتُ معه ثلاثَ سنواتٍ على هذا الجبلِ».

عادَ الحكيمُ وعِمرانُ مع ضيفِهما إلى بيتِهِمَا على الجبلِ الشرقي.. وهناك جلسَ الثلاثةُ يشربون الشاي ويأكلون التمرَ.. ويتبادلون الحديث.

قالَ لُقمانُ: «عَلمتُ أنك توليتَ حكمَ النعمانيَّةِ في رمضانَ الماضي.. فما أخبارُها وأخبارُ أهلِها؟»

تَنَهَّدَ جعفرُ وقالَ بأسى: «حال النعمانِيَّة لا بأسَ به.. وإنما حالي أنا ليست على ما يرامُ!»

صَمَتَ الجميعُ قليلًا.. فتابَع جعفرُ: «لقد عشتُ في النعمانيةِ طوَالَ حياتي وأهلُها أَهلي وأصدِقائي.. أُخْلِصُ لهم وَيُخْلِصون لي.. أثِقُ بِهم ويثقون بي.. لكن الحالَ تغيرَّ تمامًا منذ توليتُ الحكمَ في رمضانَ الماضي».

قال الحكيمُ: «كيف؟!»

قالَ جعفرُ: «ابتعدَ عني المخلصون كلُّهم.. وتجنَّبي الأكْفَاءُ جميعًا.. كأن حاجزًا قامَ بيني وبينهم.. مهما تبسطتُ معَهم لا يتبسطون معي. فهم لا يدعونَني لاجتماعاتِهِم، ولا يقبلُونَ دعَوتِي لهم.. تصور يا عمي لُقمانُ أن عينيّ لم تلتقيا بعيني أحدٍ من أهلِ النعمانِيَّة منذ توليتُ الحكمَ.. لقد فقدتُ

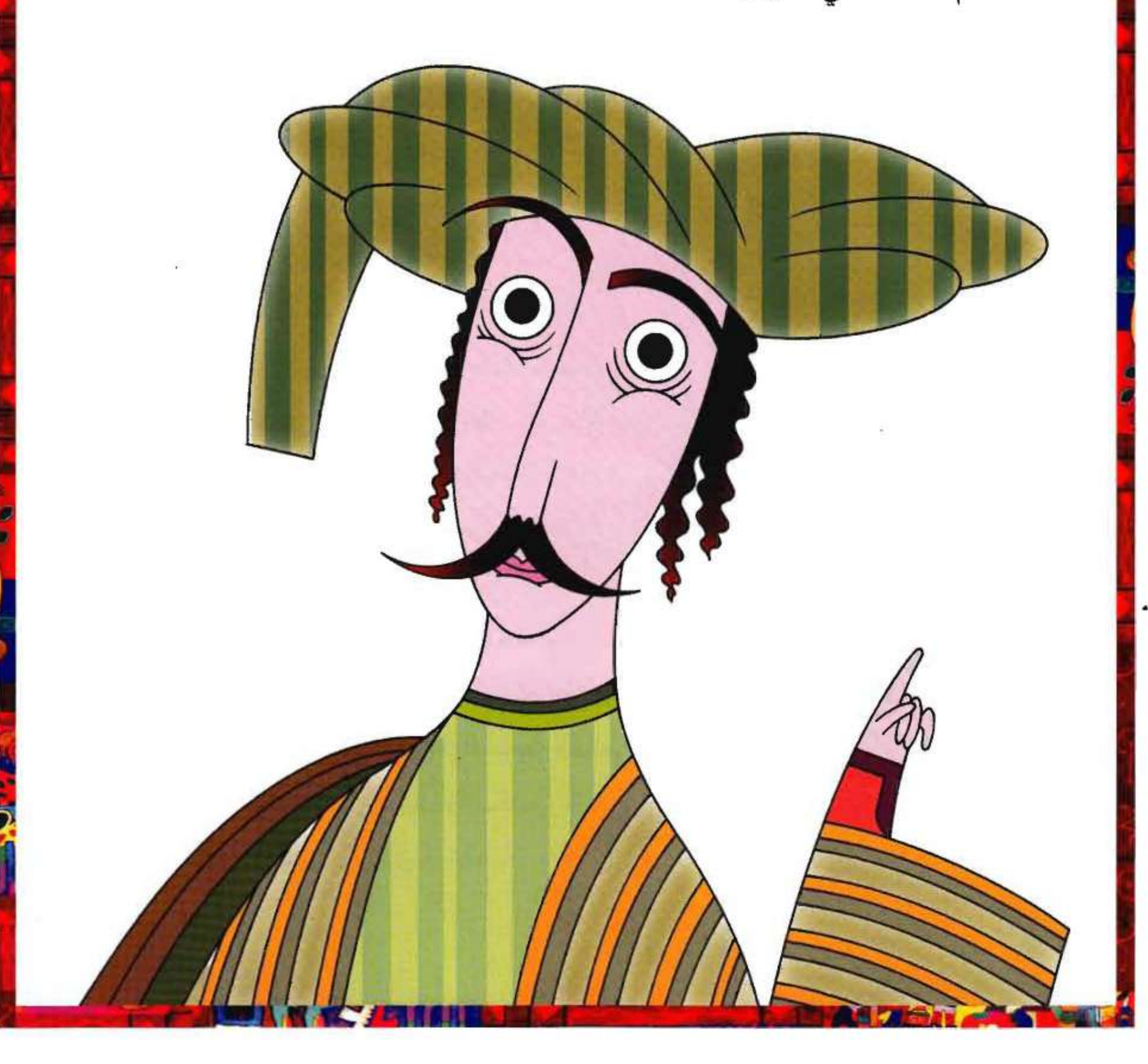
حُبَّهم لي وثقتَهم بي.. ولا أعرفُ كيف أستردَّهما!»

تدخَّلَ عِمرانُ قائلاً: «ربما كان ذلك احتراماً لك ومهابةً منك».

قالَ جعفرُ: «كلا يا أخي.. فأنت تعرفُ مشاعرَ الناسِ نحوَكَ من نظراتِ عيونِهم.. فإذا حَرِصوا على ألّا تلتقي عيونُهم بعيونِك.. فذلك لأنهم يُخفون مشاعرَهم عنك».

قال عِمرانُ متعجِّبًا: «ولماذا يخفون عنك مشاعرَهم ما دامُوا قد اختارُوك بإرادتِهم؟!»

قالَ جَعفرُ متحرجًا: في الحقيقة.. إنهم لم يختاروني بإرادتهم.. فقد توليتُ الحكمَ خلفًا لعمي سعيد».



قالَ الحكيمُ بهدوءٍ: «يا جعفر.. إذا أخلصتَ لأهلِ النعمانيةِ.. أخلصوا لكَ».

قال جعفرُ بحماسةٍ: «لكني أحبّهم فعلاً.. وأُخلِصُ لهم كل الإخلاصِ، وأحرصُ دائمًا على ما ينفعهُم».

قال الحكيمُ بالهدوءِ نفسهِ: «إذن، مقدارُ إخلاصِك هذا لا يكفي.. إذا أخلصتَ بالقدرِ الكافي.. أخلصوا لك».

أومأ الأميرُ جعفرُ برأسِه موافقًا.. وقامَ متثاقلاً، فشكرَ الحكيمَ، ورجاه أن يزورَه في النعمانيةِ.. ثم هبطَ الجبلَ، وعادَ إلى بلادِهِ.. وانطلقَ الحكيمُ وعِمرانُ في رحلتِهما إلى شمال الوادي.

ومرت الأيامُ والشهورُ، وانتهت الرحلةُ.. فاتخذَ الحكيمُ وتلميذُهُ طريقَهما، عائدَيْن إلى الوادي، على ظهرِ سفينةٍ مسافرةٍ جنوبًا.

وفي ميناءِ النعمانيةِ.. رَكبَ السفينةَ مسافرٌ غريبٌ، يلتحفُ عباءةً، ويضعُ على رأسِه عمامةً تخفي ملامَحهُ.. فاقتربَ منه عِمرانُ ليرحبَ به ويدعوه إلى الطعام.. فاكتشفَ أنه الأميرُ جعفرُ، وأنه كان في طريقِهِ إلى الوادي لزيارةِ الحكيم.. فَسُرَّ الجميعُ باللقاءِ، وأمضوا نهارَهُم يتحدثون ويتبادلون الأخبارَ.

أقبلَ المساءُ فرست السفينةُ على الشاطئ، ونامَ الركابُ.. فاقتربَ الأميرُ جعفرُ من الحكيم وقالَ له هامسًا: «مشكلتي ما زالت قائمةً يا عمي لُقمان!.. تصورْ أني قد عرضتُ مَنْصِبَ القضاءِ على السيدِ «حمدون»، الذي كان أستاذي ومعلمي فاعتذرَ، ورحلَ عن النعمانيةِ كلِها.. وكذلك «شعبان القصاص»، الذي كان زميلي ورفيق صباي رَفَضَ أن يكونَ وزيرًا لي!!.. لقد كانوا يعرفونني من قبلُ، ويثقون بي.. ولم يتبدلْ شيءٌ في حياتي أو طباعي بعد أنْ توليتُ الحكمَ.. فما سببُ حذرِهم مني وابتعادِهم عني؟!».

قالَ الحكيمُ ببطءٍ وتصميم: «لو أنك عرفتَ حقوقَهم حقًا، وفضلّتَها على مصالِحَكَ.. لوثقوا بك.. ولزال الحاجزُ القائمُ بينَك وبينَهم».

أطرقَ الأميرُ مفكرًا. فتمددَ الحكيمُ وتَغَطَّى بردائِه.. ومرت فترةُ صمتٍ طويلةٌ، قامَ بعدها الأميرُ، وغادرَ السفينةَ.



مَرَّ عامٌ.. ووصلَ الحكيمُ لُقمانُ وتلميذه عِمرانُ إلى النعمانِيَّة.. واستأجرا عربةً يجرُّها حصانٌ، حملتهما إلى قصرِ الإمارةِ.. وهناك طلبا مقابلةَ الأميرِ جعفر.

أجابهما الحارسُ: «إنه لم يعُد يقيمُ هنا.. إنه يعيشُ الآن في شرق النعمانيةِ».

ابتسَم الحكيمُ باطمئنانٍ، وهمَّ بالرحيل..

لكن عِمرانَ سألَ الحارسُ متعجبًا: «هل انتقلَ قصرُ الإمارَةِ إلى شرق النعمانيةِ؟!»

ضَحِكَ الحارسُ وقالَ: «كلا يا أخي.. إن السَّيدَ جعفرَ لم يعد أميرًا.. لقد اعتزلَ الحكمَ وانتقلَ للحياةِ في مزرعتِهِ في شرق النعمانيةِ.. واخترنا نحن حاكمًا غيرَه».

زادَ تعجبَ عِمرانَ، فاستدارَ ليلحَقَ بمعلمِه.. فناداه الحارسُ قائلاً: «إذا كنتَ ذاهبًا لزيارتِه، فأبلغْهُ سلامي، وسلامَ من في القصرِ جميعًا.»

سمعت حوارَهما امرأتان تعبران الطريقَ، فتوقفتَا وقالتَا: «أذاهبَانِ لزيارةِ السيدِ جعفر؟.. أبلغاه تحياتنا وتحيات أهلِنا!»

وتجمعَ حولهم بعضُ الشبابِ والصبيةِ يطلبون إبلاغَهُ تحياتَهم وتقديرَهم هم وأهلوهم!

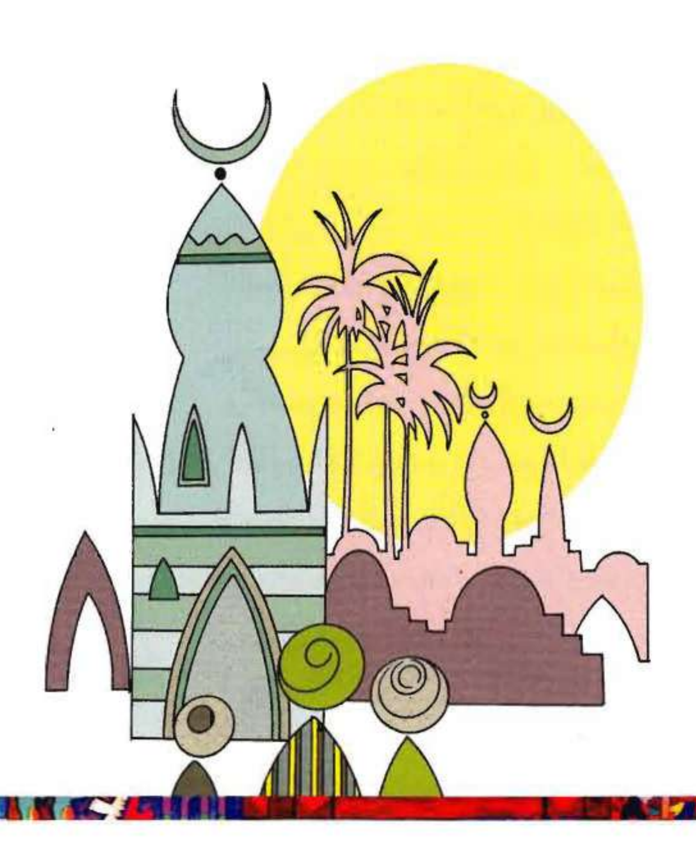
وعدهم الحكيمُ بذلك، ثم عادَ مع عِمرانَ إلى العربة، وسألا سائقِها إن كان يعرفُ الطَّريقَ إلى شرق النعمانيَّةِ.

التفتَ السائقُ إليهما وقال: «لزيارَة السيدِ جعفر؟... طبعًا أعرفُ الطريقَ.»

انطلقت العربةُ، وانطلقَ سائقُها يردِّدُ: «كلنا نعرفُ مزرعةَ السيدِ جعفر، ونعرفُ الطريقَ إليها.. ونزورُهُ فيها دائمًا، ونلجأُ إليه لحلِ مشكلاتِنا.. وهو يرحِّبُ بالجميع ولا يرفضُ مساعدةَ أحد.»

همسَ عِمرانُ لأُستاذِه: «إذا كان النَّاسُ يحبونَهُ ويحترمُونَهُ.. وَيثقُونَ به وَيلَجئُونَ إليْه.. فلماذا اعتزلَ الحُكْمَ إذن؟!»

أجابَ الحكيمُ بِثقة: «اعتزلَ.. فأَثْبَتَ لهم أَنَّه يحبهُّم ويخلصُ لهم أكثرَ مما يحبُ نَفسَهُ ويخلصُ لَهَا.»




لا تكنس
السلم

لا تكنس السلم

كان شعبانُ ورمضانُ أخوَيْن فقيريْن، يعيشان في بيتٍ حقيرٍ؛ جدرانُه من فضلات أقفاصِ الخشبِ، وسقفُهُ من ألواحِ الصفيحِ البالية.

وعلى الرصيفِ المقابلِ لهما، كانت هناك دارةٌ كبيرةٌ أنيقةٌ، لها حديقةٌ واسعةٌ، يملكُها السيدُ جُلمود. ويسكنها وحدُهُ، هو وخدَمُهُ ومساعدُوه.

وكان يفصلُ بين مسكنِ شعبانَ ورمضانَ وبين دارةِ السيدِ جُلمود شارعٌ طويلٌ عريضٌ، له رصيفٌ كبيرٌ، تُطلُّ عليه بيوتٌ أخرى كثيرةٌ فاخرةٌ لها حدائقُ واسعةٌ بها أشجارٌ وأزهارٌ من كل نوعٍ وشكلٍ.

كان رمضانُ يعاني من عرجٍ شديدٍ في ساقه اليُسرى، فكان يمشي بصعوبةٍ ويسيرُ مترنِّحا. لذلك، عَملَ كنّاسًا في البلديةِ؛ مُكلفًا بِكنسِ ذلك الشارع مقابلَ أجرٍ قليلٍ لا يكادُ يكفيه.. أما شعبانُ فكانَ يَكْنُسُ سُلَّم دارةِ السيد جُلمود، مقابَل أجرٍ مجزٍ يقبضُهُ من البوابِ كل يوم بعد أن ينتهي من عملِه.

ذات يوم، وقفَ السيدُ جُلمود فى شرفةِ دارته ونادى رمضانَ، ونهرَه قائلاً: «لا تكنس الشارعَ أمامَ داري؛ فَمَنْظرُكَ لا يعجبُني، وطريقةُ سيرِكَ تزعجنِي!»

قال رمضانُ: «هذا عملي يا سيدي؛ الذي أنالُ عنه أَجرِي.»

صاحَ السيِّدُ جُلمود: «ابتعد عن داري وإلا..»

قال رمضانُ: «لا أقدرُ يا سيدي، فالشارعُ أمامَ دارِك جزءٌ من عملي».. وراحَ يكنسُ بهدوءٍ حتى لا يثير ترابًا، ويتحركُ ببطءٍ حتى لا يلحظهُ السيدُ جُلمود فينزعجَ.

في اليوم التالي، خرجَ السيدُ جُلمود، راكبًا عربتَهُ الفارهَةَ، التي يجرُّها حصانان قويان، ويقودُها سائقٌ أنيقٌ متعجرفٌ مثلَ سيدهِ.. ونَظَرَ إلى شعبان ورمضان بتقزُّزٍ، ثم ناداهُما.

اقتربَ الاثنان، فمد السيدُ جَلمود يدَهُ.. ولطمَ رمضانَ لطمةً قويةً على وجهه.

ترنَّح رمضانُ، ووقعَ على الأرضِ.. وبدلاً من أن يتقدمَ أخوهُ شعبانُ لنجدَتِه، أسرعَ وانحنى احتراماً للسيدِ جُلمود.. فأعرضَ عنه السيدُ جُلمود، وأمر سائقَهُ بالمسير.

عادَ الأخوانِ إلى مسكنِهما صامِتَيْن مُتَألِّمَيْن؛ رمضانُ متألمٌ لما أصابَه ظلماً وعدواناً.. وشعبان متألمٌ لتخاذلِه.

في اليوم التالي توقفَ السيدُ جُلمود أمامَ مسكنِ الأخَوَيْنِ ونادى رمضانَ.. فتصورَ رمضانُ أن الرجلَ قد تراجعَ عن ظلمِه وأرادَ أن يعتذرَ له.. فتقدمَ متفائلاً.. لكنه تلقى لطمةً مثلَ التي تلقاها في اليوم السابقِ.. وانحنى شعبانُ تحيةً واحتراماً للسيدِ جُلمود كما فعلَ من قبلِ.

وانصرفَ السيدُ جُلمود، وعادَ الأخوان مثلَما عادا من قبلِ..

بعد ذلك كان السيدُ جُلمود يقفُ كعادتِه وينادي رمضانَ، فلم يكن رمضانُ يجيبُ النداءَ، ولا يخرجُ من مسكنِه.. فكانَ السيدُ جُلمود يرسلُ سائقَهُ الضخمُ المتعجرفُ ليلطُمَ رمضانَ في بيته ثم يعودُ للعربةِ فَرِحاً بنفسِه مسروراً.. ويتبعه شعبانُ مهرولاً، لينحني للسيدِ جُلمود محيياً.. ثم يسرعُ إلى دارتِه يكنس سلمها وينظفه، ويتقاضى أجرَهُ ليشتري به طعاماً له ولأخيه.

استمرَ الحالُ كذلك أياماً عديدة! وتطورَ الأمرُ؛ فكثيراً ما دَفَعَ السائقُ رمضانَ إلى الخارجِ ليتمكنَ السيدُ جُلمود من أن يَجْلِدَهُ بسوطِه

الطويلِ.. وفي كلِ مرةٍ كان شعبانُ يستجمعُ قواه وينوي الدفاعَ عن أخيهِ، لكنه يجدُ نفسَهُ مندفعاً لتحيةِ السيدِ جُلمود قبلَ أن يُسْرِعَ إلى عملِهِ اليومي.. وهو كنس سُلَّمَ الدارةِ.

ذات يوم خرجَ شعبانُ هائماً على وجههِ من شدةِ الندمِ والخجلِ، حتى وصلَ إلى سوقِ المدينةِ، فجلسَ إلى جوارِ جدارٍ، مستغرقاً في أفكارِهِ.. حتى نامَ من التعبِ.

في ذلك اليوم هَبَطَ عمرانُ من الجبلِ واتخذَ طريقَهُ إلى سوقِ المدينةِ.. وهناك، رأى شعبانَ، وتذكرَهُ..فقد كان أبواهُما جارَيْنِ يعملان معا في حقولِ قصبِ السكرِ.. ثم رحلَ شعبانُ ورمضانُ إلى المدينةِ بعد وفاةِ أبيهما، ولم يسمعْ عنهُمَا بعد ذلك.

أيقظَ عمرانُ شعبانَ وسلَّمَ عليه، ودعاه إلى الغَداءِ. فجلسا يتحدثان، وروى شعبانُ لعمرانَ ما أصابَه وأخاه من ظلم ومهانة.

قال عمرانُ: «دعني أذهبُ معك وأرى بنفسي ما يمكنُ عملُه».

سارَ الصديقان حتى وصلا إلى البيتِ، فوجدا رمضانَ مستلقياً على فراشِهِ يتألمُ مما أصابَه ذلك الصباحِ من لطم وضربٍ.

أعدَّ عمرانُ شراباً ساخناً لرمضانَ، وضمدَّ جراحَهُ، ثم أمضى الليلةَ مع الأَخَوَيْنِ ليرى بنفسِهِ ما يحدُثُ في الصباحِ.

في صباحِ اليوم التالي، وقفت عربةُ السيدِ جُلمود، ونزلَ السائقُ ودَخَلَ مسكنَ الأَخَوَيْنِ،



وَلَطَمَ رَمضانَ على وجهِهِ.. وهمَّ أن يَرْكُلَهُ.

اعترضَهُ عمرانُ وهو يقولُ: «إذا مَسَسْتَهُ فسوف تَلقَى مَا لاَ يرضيكَ!»

لكن السائقَ لم يهتمَّ بكلام عمرانَ، ورَكَلَ رمضانَ!

وفي الحالِ، رَكَلَهُ عِمرانُ، ثم حَمَلَهُ وألقاهُ خارجَ البيتِ!

رأى السيدُ جُلمود ما حلَّ بسائقِهِ، فنزلَ من عربتِهِ، وتقدمَ من عِمرانَ شاهرًا سوطه.

وفي لمحِ البصرِ، لَطَمَ عِمرانُ السيدَ جُلمود، ودفعَهُ في صدرِهِ فألقاه تحت أقدام الحصانَيْنِ!

أسرعَ السائقُ فركبَ العربةَ، ولحقَ به السيدُ جُلمود.. ودون أن يتبادلا كلمةً واحدةً فرقعَ السائقُ بسوطه، فانطلقَ الحصانان يعدوان.

قال عِمرانُ لشعبانَ متعجبًا: «أرى أنه جبانٌ وكذلك سائقه.. فأين مشكلتك إذن؟!»

أطرقَ شعبانُ خَجِلاً ولم يجبْ.. فودعَ عِمرانُ الأخَوَيْنِ وعادَ إلى بيته على الجبلِ الشَّرقي.

حكى عِمرانُ لمعلمه لُقمَانَ قصةَ الأخَوَيْن شعبانَ رمضانَ.. فهزَّ الحكيمُ رأسَه وقالَ: «لن تنصلحَ أحوالُهما حتى يمتنعَ شعبانُ عن كنسِ السلُّم».

مرت الأيام، ولكن حالَ الأخوَيْنِ استمرَّ كما هو.. في كلِ صباحٍ يلطِمُ السائقُ رمضانَ، ويَرْكُلَهُ.. فينطلقَ شعبانَ نحو العربةِ، فينحني للسيدِ جُلمود محييًا. ثم يعودُ خجلاً متألمًا مما فعلَ.

بمرورِ الأيام، انهارت صحةُ رمضانَ من كثرةِ الضربِ، وانهارَت نفسُ شعبانَ من الألمِ والندم لتقاعُسِه عن نصرةِ أخيه.. فهجر المسكنَ وخرجَ هائمًا على وجهِهِ.. متجهًا جنوبًا، حتى وصلَ إلى الجبلِ الشرقي..

أقامَ شعبانُ على سفحِ الجبلِ ثلاثةَ أيام، حتى نزلَ عِمرانُ ذات صباحٍ فوجدَهُ منتظرًا عند صخرةٍ فى ظلِ الجبلِ، فسلَّمَ عليه، ودعاه لزيارةِ الحكيم.

رحَّبَ الحكيمُ بشعبانَ، ودعاه للإقامةِ عندَه حتى يرتاحَ من رحلتِهِ، فأقامَ

أيامًا حتى صفا ذهنُهُ.. فخرجَ في صباحِ أحدِ الأيام يعاونُ الحكيم في العنايةِ ببستانه.. ويقصُّ عليه محنتَه ومحنةَ أخيه رمضانَ.. ثم قالَ: «ماذا أفعلُ يا عمي لُقمانَ لأنصرَ أخي؟!».

قالَ الحكيمُ. «لا تكنسْ سُلَّمَ دارةِ السيدِ جُلمود!!».

تعجبَ شعبانُ وقالَ: «ولكن هذا هو عملي الذى أقبضُ منه أجري، فأطعمُ أخي المسكينَ، وأحفظُ كرامتي؛ فلا أطلبُ من الناسِ صدقةً.. ثم، ما صلةُ كنسِ السُلَّمِ بالشجاعةِ في مواجهةِ السيدِ جُلمود، والقدرةِ على نصرةِ أخي والدفاع عنه؟!».

قال الحكيمُ بإصرارٍ: «لا تكنسْ السُّلَّمَ ثم انظرْ؛ فسوف تسترد شجاعتَك وتنصرَ أخاكَ».

رد شعبانُ بضيقٍ: «سوف أفقدُ صحتي، ولنَ أجدَ مالاً أشتري به طعامًا ولا دواءً لأخي البائس».

قالَ الحكيمُ: «إذا كنْتَ تريدُ أن تستردَ شجاعتَك وتنصرَ أخاك، فلا تكنس السُّلَمَ.. أما إذا أردتَ أن تحفظَ صحتَكَ وتطعمَ أخاكَ.. فهذا أمرٌ آخر».

عادَ شعبانُ إلى مسكنِه في المدينةِ وهو يقلبُ الأمرَ ويعيدُ التفكيرَ فيما قالَه الحكيمُ، لكنه استمرَ يكنسُ السُّلَّمَ كلَ يومٍ، ويقبضُ أجرَهُ كالعادةِ من البواب..

.. حتى جاءَ يومٌ لم يعدْ شعبانُ يتحملُ الإهانةَ التى تَلْحَقُهُ وتلحقُ أخاه.. فامتنعَ عن كنسِ السُّلَّم لأولِ مرةٍ فى حياتهِ منذ حضرَ إلى المدينةِ.

في ذلك الصَّباحِ، الذى امتنعَ شعبانُ فيه عن كنسِ السُّلَّم، لم يدفْع له البوابَ أجرَه، فلم يجدْ مالاً يشتري به طعاماً له أو لأخيهِ.. لكنه شعر أن حملاً ثَقيلاً قد انزاحَ عن ظهرِه.

حضرَ السَّائقُ كالعادةِ، ولطَمَ رمضانَ، وركلَهُ.. فلم يتقدمْ شعبانُ للدفاع عنه.. لكنه لم يسرعْ لتحيةِ السيد جُلمود.

عملَ شعبانُ حمالاً في السوقِ، فكانَ يكدحُ طولَ اليوم ويعودُ برزقٍ قليلٍ. وأصبحَ لا يشبعْ أبدًا هو أو أخوه.. ومرت الأيامُ قاسيةً عليهما،



حتى أصابَهُما الضَّعف..

ولكنِ.. في أحدِ الأيام، أقبلَ السائقُ كعادتِه ليلطُمَ رمضانَ.. فهبَّ شعبانُ واقفًا وحال بينَ السائقِ وأخيه.

وفي اليوم التالي دفعَ شعبانُ السائقَ دفعةً قويةً ألقتْهُ خارجَ المسكنِ.

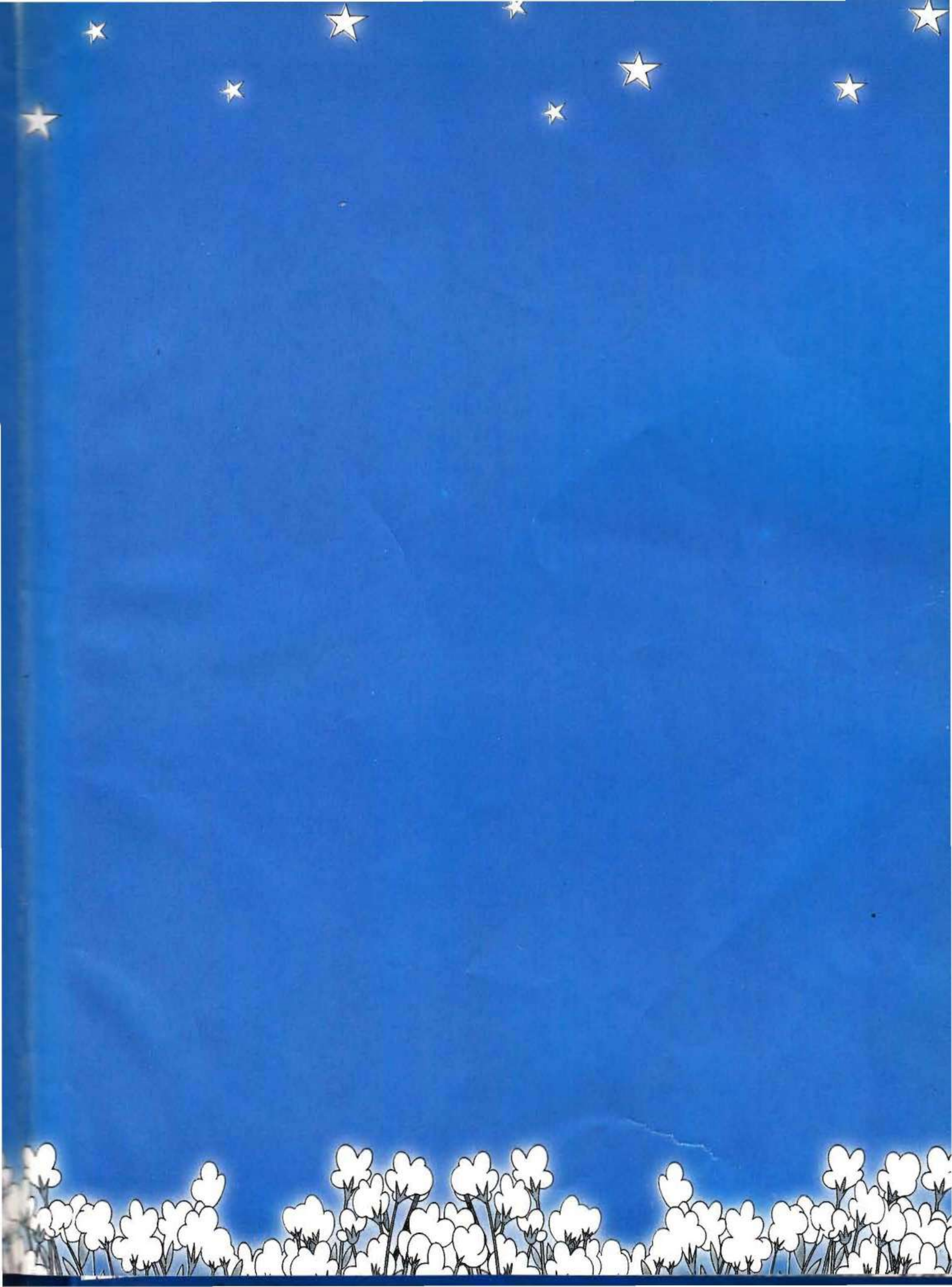
وفي اليومِ الثالثِ.. نَزلَ السيدُ جُلمود بنفسه، ليلطمَ رمضانَ، ويلقنَ شعبانَ درسًا.. فاعترَضَهُ شعبانُ ومنعَهُ من دخولِ المسكنِ..

وفي اليوم الرابع، وقفت عربةُ السيدِ جُلمود أمامَ مسكنِ الأَخَوَيْنِ، وهَمَّ بالنزولِ منهاَ، حاملًا سوطَهُ في يدِهِ.. فأسرعَ شعبانُ ولطمَهُ لطمةً قويةً على وجههِ فعادَ مسرعًا إلى عربتِه، وأمرَ سائقَهُ بالابتعاد فورًا.

ووقفَ شعبانُ في وَسَطِ الشارعِ..يَتَلَفَّتُ حولَهُ متعجبًا!!

المحتوى





حكايات
الحكيم لقمان

كان الحكيم لُقْمانُ يعيش على الجبل الشرقي. فيأتي إليه الكبار والصغار من كل مكان لزيارته واستشارته،
وكان يجوبُ البلاد .. فيساعدُ مَن يحتاجُ إلى المساعدة، وينصحُ مَن يطلبُ النصيحة.
كان رقيقَ القلب.. يحبُّ الناس ويرأفُ بهم.. وكان شجاعًا أبيًا.
يكره الظلمَ ولا يَقْبلُ المهانة..
فأحبَّهُ الأقوياء، وتعلموا من حكمتهَ.. وخافه الجبابرة، فحدّوا من طغيانهم.. ولجأ إليه الضعفاء يحتمون به، ويستمدون منه القوة.

● وهذا الكتاب يقدِّم أربع عشرة قصة طريفة شائقة من قصص هذا الحكيم العظيم، أبدعت حكايتها الكاتبة المرموقة أماني العشماوي بأسلوبها الجميل الساحر، ليستمتع بقراءتها كلُّ من يسعى في طلب الحكمة والعلم، لينفع الناسَ بخبراته أُسوةً بتلاميذ الحكيم لقمان.

● وقد زُيِّنت هذه القصص الرائعة برسوم بديعة للفنان الموهوب مصطفى رحمة، لتزيد من بهجة ومتعة القارئ العزيز.



دار الشروق